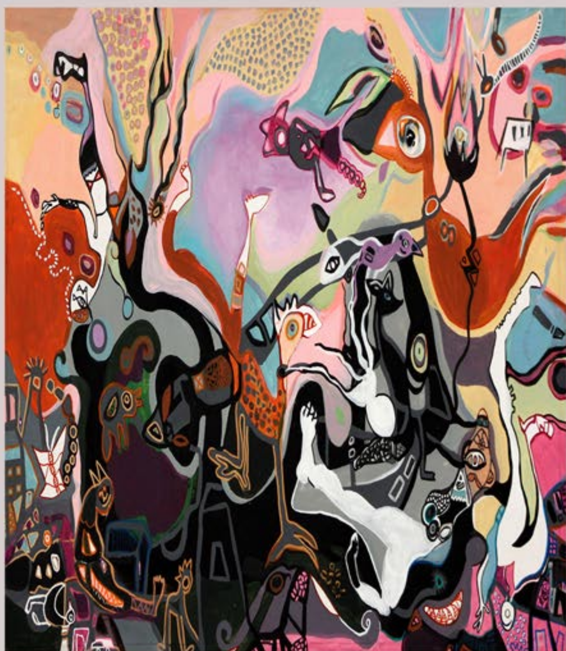
نوال

حكمت الحاج وعواطف محجوب



رواية قصيرة مشتركة



نوال

رواية قصيرة مشتركة

حكمت الحاج وعواطف محجوب

كتاب كناية

نوال

رواية قصيرة مشتركة

حكمت الحاج و عواطف محجوب

Isbn: 978-1-304-48168-9

سلسلة مطبوعات ورقية ورقمية تحت إشراف الشاعر حكمت الحاج. مشروع ثقافي يهدف الى إيصال الكتاب العربي إلى العالم

[*www.metonymykinaya.com*](http://www.metonymykinaya.com)

[*kinayanour@yahoo.com*](mailto:kinayanour@yahoo.com)

من منشوراتنا القادمة:

قراءة ثانية، مقالات في النقد المعاصر، عواطف محجوب.

الكتابة بسيف الثائر علي بن الفضل، طبعة ثانية مرخصة، شعر د. عبد العزيز المقالح، تقديم حكمت الحاج.

للصورة لون آخر، شعر، معد الجبوري، طبعة ثانية مرخصة.

القطار، رواية قصيرة، يونس أحمد، ط2 (نشر ما بعد الوفاة)

<u>لوحة الغلاف هدية من الفنانة التونسية شيماء الزعفوري</u>

صدر للكاتبين عن منشورات كناية:

غمسيس، رواية طويلة مشتركة، منشورات كناية 2023

نوال

الراقي والمرتقي

(1)

بدا للحظة أن أحجبة السحر قد أتت بمفعولها معه، وتلك الخرق القذرة التي يلفها كورق العنب ويحشوها بما يملك من الأوراق والنفايات والفضلات ويخيطها بلا عناية بخيط من الصوف وإبرة صدئة ويغمسها قليلا بماء العنبر المغشوش أو المسك الصيني المزيف فتنتشر الرائحة الكريهة في كل المكان، يحاول للحظة التبرؤ منها والابتعاد عنها كأنها نجاسات ذوات شبهة، ويفكر بدلا عن ذلك في الفراشات الجميلات الساحرات الفاتنات، إنهن قادمات إليه في زيارتهن الشهرية له على إيقاع دوراتهن القمرية، ليقرأ عليهن آيات من القرآن الكريم ويسبح لهن بالرحمن، ويتمتم بكلمات غامضة ويغمض عينيه ويرفع رأسه نحو السماء وبين فينة وأخرى يمسح بيده الكريمة على رؤوسهن بلطف غامر ويفرك أحيانا جباهتهن بباطن إبهامه مع ضغطات خفيفة لتجميع الدم وطرد الصداع. فلينظف كل شيء، وليفتح الشباك على مصراعيه، ودرفة من الباب الخشبي العتيق، فإحداهن تدقق كثيرا في كل شيء وهي أجملهن، والأخرى تمسك بأنفها وهي تدخل المكان مستبشعة عدم تنظيمه وقلة تنظيفه، وهي البدينة بينهن، بينما الثالثة هي الرشيقة لابسة السراويل الجينز، تضع الكمامة طوال الوقت وكأننا في أيام الوباء اللعين لا أعاده الله على المؤمنين والراقين منهم على وجه الخصوص، وعلى رأسهم هو، ذلك الراقي "الراقي" المتعلم الذي فاته الشباب لكن ما زال قطار الكهولة لم يصله بعد، وإن تقصد بذكاء إضفاء مظهر الشيوخ

عليه (من باب مستلزمات العمل ليس إلا) وقد ساعدته في ذلك التخفي لحيةٌ وَخَطَهَا الشيب كثيرا منذ أيام شبابه، ودراسته للقانون في الجامعة، التي طرد منها لأسباب سياسية، وموهبة ورثها عن أبيه بحسن اختيار الملبس حسب أحوال الشمس والطقس، وهو الذي تقصده النساء من مختلف الأعمار والطبقات لطلب العون منه والتدخل لصالحهن في القدر الإلهي بعد أن اشتهر اسمه وذاع صيته أنه "يفك العمل" ويزوج الأرملة ويجعل العواقر يحبلن من الزيارة الخامسة، ويساعد العجائز على تطفيش كناتهن، ويجعل الكنائن حبيبات الحموات الثريات. وأخيرا أشيع عنه انه يعلق لطالب الباكالوريا الحجاب من هنا، فينجح الطالب ويذهب بمعدل كبير إلى الجامعة، من هناك.

الحمد لله الذي لا إله إلا هو الرّحمن، الرّحيم، الملك، القدّوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرّزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرّافع، المعزّ، المذلّ، السّميع، البصير، الحكم، العدل، اللّطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشّكور، العليّ، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرّقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشّهيد، الحقّ، الوكيل، القويّ، المتين، الوليّ، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحيّ، القيومّ، الواجد، الماجد، الواحد، الصّمد، القادر، المقتدر، المقدّم، المؤخرّ، الأوّل، الآخر، الظّاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرّ، التّواب، المنتقم، العفوّ، الرّؤوف، المقسط، الجامع، الغنيّ، المغني، المانع، الضّار، النّافع، النّور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرّشيد، الصّبور، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، فإن لله تسعة وتسعين اسما، ولا يدري مولانا الراقي لماذا لم تعبر

الأسماء المائة. إنها ثقيلة معلقة مثل قوارير عطر زجاجية من جامع الزيتونة، لكن للأسف زيتية ورخيصة وتورث الحساسية على الرقبة والساعدين. ثم قال لنفسه أنا الآن على الأقل، مع كل نظرة علوية، أعزز رقبتي، وكأني أعتقها والعياذ بالله سأحتاج لذلك وما هو مطلوب وأكثر، يجب التوقف عن العد، الحفاظ على الرقبة مرتبطة بالجسم جهد الإمكان وإلا فإن التاريخ يثبت مرارا كم هو سهل فصل الاثنين عن بعضهما البعض. أووف يا رب أين الحاسبة والحساب؟ أحدكم استعان بأسماء الله التسعة والتسعين؟ هل استعان أحدهم بالمستعين؟ هراء. سكتة دماغية. الأسماء مفصولة عن الرحمة ويبدو أنها أكثر شمولية على ما يبدو مثل كل دفاع مشين وغادر. لا يزال أحد الأسماء "الراوي" وربما أيضا "الشاهد" وربما حتى "الرقيب الحسيب الجساس" هذا إن كان الاشتقاق صحيحا كما قرأ ذلك ذات مرة في كتاب عنوانه "الجاسوس على القاموس" لابن سيد الناس أو سيد البشر أو البقر.

كانت الأشجار هي الأخرى لا حصر لها. المشي في الطريق إلى بوابة عشتار وراء الحديقة العامة، حديقة الحيوان أو حديقة حقوق الإنسان، والمحافظة جهد الإمكان على الرقبة. استدار وارتفع وصولاً إلى الطابق السفلي. لفترة طويلة وقف هناك أمام أكياس البطاطس، أمام مناشير الأشجار والجاروف والتشويش- في الذاكرة تلك الشرارات من أحجار السيليكون مرة واحدة في حين- تتراوح مواقف الناس مثلا من كرة القدم إلى المائدة إلى سرير المدارس، إلى الصندوق مع الأوراق والصور للأسلاف من العائلة الكريمة، ولم يتمكن من تذكر ما كان هذا ومن قد جلبنه إلى الطابق السفلي. وقف بوضوح فقط: لقد كان شيئًا كان يرغب في القيام به، والسلوك بمحتذاه، واعتناء مفرط به لآخر درجات الاعتناء. هيا التقطه، ثمة شيء تحتاجه، أو على الأقل مطلوب، وعاجل كذلك. ليس لأول مرة

يجد نفسه يقف أمام شيء ما، إذا كان الأمر كذلك في المطبخ أو الصالة أو المنزل كله، واسألني ماذا في العالم يمكن أن يكون مثلي اضطررت للبحث أو الأداء هناك في الفضاء. ولأي وقت في الترتيب الآن، وقفت للتو ووقف هناك عقلي في الفراغ حيث لا قرار لي بين نوال أم خديجة أم صالحة، والشيء أو الإجراء اللازم عمله على الفور، وقبل ولوجهن غرفة العمل، هو نبذهن ورميهن الى الجحيم قبل أن يفقد عقله أو ما تبقى له من عقل بعد تطور العلاقة بينهم الأربعة، إلى جلسات ومسامرات وحكايات وطموحات ومخططات ومذكرات وتعويذات وتسريبات لخصوصيات لا ينبغي لها أن تتسرب من أي من الأربعة، حيث أن الذي سيتم القيام به فقط هو الرفض والرفض ومن ثم الرفض. رفض الصعود من أجله، ورفض النزول لأجلهن. ومع ذلك: شيء ما كان لا يجب القيام به، هناك، في الطابق السفلي، في قبو المنزل، مع أكياس المؤونة وبعض الصراصير وعدد من الجرذان وسرير خشبي متهالك يستعمل كمرفع للأدباش أكثر مما سيستعمل لوظائف النوم أو المجامعة. ولكن ماذا وكيف؟ وفي الوقت نفسه، وأمام كل هذه المطبات والمغريات، شعر أنه مع انفصال تام عن الواقع، فهو يفضل نوال، لكن للاثنتين الأخريين صفات لا يمكن أبدا التفريط فيها أو التغاضي عنها. فماذا يفعل؟ كان هناك شيء قد قرر القيام به، والاستسلام له، والتقاط طرف خيطه، يضمن في الأقل، وهو في الطريق إلى بوابة الحديقة البابلية، إنه اذا ما سقط فسيسقطن معه، في الوقت الحالي، وفي كل وقت، وفي نفس الوقت.

هذا شيء كان معلقًا على هذا إن لم يكن كل شيء. قال لها أنت ستهربين من زوجك. وقال للأخرى أنت ستحبلين من زوجك. بينما قال للثالثة أنت لن تكوني لأحد لكن الجميع سيكونون لك. لذلك على الأقل فإن ما تم تحديده مؤخرًا فيما بينهم، يعني فيما بينه بصفته الراقي والعراف وقارئ الطالع والنجوم

والمحلل النفسي والمرشد الاجتماعي والطبيب، وبينهن، الأستاذة والمهندسة والطبيبة، وكل ذلك إلى أجل غير مسمى، ومع ذلك، لا يعني ذلك أنه كان أقل صداعًا منهن أو انه لا يحتاج الى معالج أو طبيب. ها هو أولا وأخيرا وقبل كل شيء وبعد كل شيء قلق منهار وخائف ومرعوب. الوقوف هنا في قبو هذا المنزل الحقير، في هذه الحومة الحقيرة، في هذا البلد الحقير، في هذا الكون الحقير، يقلقني جدا. مرحباً. مرحبا بك، أيها القلق! نظرة أخيرة من على كتفه الأيسر يرمق بها الحديقة المفتوحة على نطاق واسع مثل بوابة ملكية. أتزامن مع التعب، أمسك به ويمسكني. لماذا أنت خائف يا ولد؟ أمع كل هذا الممتلكات وتخاف؟ ألسن كلهن ملك لك؟ لماذا تخاف؟ أنت لديك الثروة والقوة والجمال والتعاطف والمصلحة المشتركة، ولك بعد كل ذلك، الوطن. إنه شيء مختلف بشكل أساسي، أو بالأحرى: لم يكن له أية علاقة بهذه الذوات والأدوات لذلك أنت فكرت ثم فكرت ثم أخذت تفكر وتفكر في ما الذي يمكنك المراهنة به والاعتماد عليه. وبالمثل، منذ ذلك الحين، وجدت أيضًا أنك غير قادر على العدل بينهن. كل نظرة وكل كلمة وكل لمسة وكل همسة صارت تذهب في اتجاهات شتى حسب الاسم والجسم. فهذه لنوال وهذه لخديجة وتلك لصلوحة. تماسك يا رجل. ماذا دهاك؟ هل هي المرة الأولى التي ستقابلهن فيها؟ لماذا أنت اليوم دونا عن سائر الأيام ترتجف؟ هل نحن متماسكون؟ يتذكر أيام النضال السلبي والبوليس والمظاهرات. نعم يا رفيق، متماسكون وجاهزون للموت في سبيل القضية يا رفيق. تماسك يا رجل. هي بضع لكمات وسياط وركلات ودوس بالأرجل وتمضي وبعدها نغني للوطن الحر وللشعب السعيد. هل ما زلت تؤمن بالقضية؟ نعم يا رفيق، وهل هناك قضية أقدس منهن؟

(2)

كان مولانا الشيخ الراقي "بن بلقاسم" يصغي بكل اهتمام وشغف إلى حديث النسوة الثلاث اللائي ابتلي بهن عن جد وتورط، بعد أن ابتلين هن به عن هزل ومزح. لكنها الضرائب التي يجب أن تدفع طواعية. حرك كأسه بيده حركات دائرية ليذيب مكعبات الثلج المترسبة في القعر مع السائل اللاذع الذي سرعان ما يتحول الى لون الحليب وهو يخالط الماء في الكأس الباردة. ومثل كل مرة، يقرر مع نفسه إنه لن يواصل هذه اللعبة معهن فنتيجتها مهلكة ولاشك، يجد نفسه ناقضا لذاك الاتفاق الذي أبرمه مع نفسه، ومنخرطا من جديد في الحكاية، فنظرة واحدة إلى وجوههن الجميلة تنسيه قراراته جميعها، صغيرها وكبيرها، ولا يعود يربد شيئا من هذه الدنيا سوى أن يبقى معهن، وأن يقضين معه ليال أخر، أكثر فأكثر، في جو من المرح والفرح والضحك والغناء والطعام اللذيذ والشراب الذي يدير الرؤوس ويذهب بالعقول. أكملي أكملي، كلي آذان صاغية. قالت أوكيه، وين وصلنا؟ قال لها مشجعا لتواصل: وصلنا عندما دخلت عليك خالتك. قالت نعم. تدحرجت دموعي في صمت حتى لا تسمعها خالتي فتضربني. قالت لي أريدك مطيعة للرجل الذي أصبح زوجك. إن عدت يوما إلى هنا سأقتلك وأمضغ كبدك. لكني لم أكن أفهم ماذا كانت تعني وقتها كلمة "زوجك" ولا كلمة "مطيعة". كنت أود أن ألعب وأذهب إلى المدرسة فقط. أنزلت خالتي الطرحة القماشية وغطت وجهي جيدا وأمرتني أن لا أزيحها أو أرفع رأسي مطلقا. قادتني ناحية باب الدار، وهناك تلقفتني يد أخرى، ووجهتني لأصعد في السيارة وأنا أتعثر في ذيل الفستان الطويل، وأقدامي بالكاد تغير خطواتها بالكعب العالي. لمحته من ثقوب القماش المطرز. كان في عمر أبي لو كان أبي حيا ليلتها. كهل وخط الشيب فوديه وذقنه. صمته وابتسامته

الخفيفة زاداه وقارا. وكأنه أحس بي أرمقه خفية فاستطالت ابتسامته بينما دموعي لم تكف عن الانحدار، وكل ما في داخلي كان يرتجف خوفا. قادني عبر ممرات البيت وأدخلني غرفة النوم. شعرت بالسرور. سأحصل مجددا على غرفة خاصة بي، فمنذ وفاة والدي ورحيلي عن بيتنا، لم أحظ بشيء خاص بي. سأضع فيها كل الأغراض التي أحبها. ولكن، هل يعوضني شيء عن كاورك، صديقي الدب المفضل؟ أجلسني الرجل على السرير وجلس إلى جانبي. بقي صامتا. وبين الفينة والأخرى يصدر نحنحات كتلك التي كان يصدرها أبي حين يعود الى البيت معلنا عن وصوله. كنت أنتظر أن يحدثني بشيء لكنه أحجم ووقف أمامي. مد يدين مرتعشتين ورفع الطرحة عن وجهي. أخيرا تقابل وجهانا. تبدو تقاسيمه جميلة ومألوفة أشعرتني بالارتياح. ولوهلة أحسست انه يشبه والدي لدرجة غير معقولة. تناقص خوفي وسيطرت على ترددي. جذبت يمناه ووضعتها بين كفيّ. نظرت إلى عينيه وغصت فيهما بعيدا وقلت له: أأنت أبي الجديد؟ لم يحر جوابا، بل غزت غمامة حزن عينيه، ثم أمطرت على كل وجهه. نظر إليَّ ثم انسحب خارجا وهو يقول "غيري ثيابك واستريحي حتى يجهز العشاء". أغلق الباب وراءه واختفى. لقد تركني للصمت والدموع والأسئلة ترمي شباكها وتأسر رأسي الصغير. لم أره مجددا تلك الليلة فقد جلبت لي الخادمة العشاء إلى الغرفة وساعدتني على نزع فستان الزفاف. حاولت تسليتي بكلمات مشجعة تقطر حنانا لكنها لم تفلح في تغيير مزاجي. إحساس الغربة لا يغادرني، فأنا أخاف التغيير إن لم يرافقني فيه وجه مألوف. رغم رفاهية الغرفة والراحة التي تبثها من زواياها وأثاثها وستائرها، لكن الخوف الممزوج بالغرابة لم يطلق سراحي بعد من براثنه. بعدما غادرت الخادمة لم استطع كبح جماح فضولي ففتحت أدراج طاولة الزينة وأبواب الخزانة العريضة. كل شيء مرتب منتظم وفي مكانه: العطور، الساعات، ربطات العنق، القمصان

مكوية مصفوفة وألوانها تكشف عن ذوق رفيع. لوهلة أحسست بالخجل وأنا أنبش في أغراض لا تخصني، فأغلقت أبواب الخزانة وانسحبت إلى سريري وأنا أحاول أن أفهم لماذا تركني في غرفته ولم يخصص لي غرفة أخرى؟ أين سأضع أشيائي ولعبي إذن؟ صباح اليوم الموالي أيقظتني طرقات مترددة على الباب. لم أستوعب المكان الذي أنا فيه فشردت أتأمل الأشياء الموجودة في الغرفة. تحيته الصباحية أعادتني من شرودي وذكرتني بأنني في بيت رجل غريب. جذبت اللحاف أغطي نفسي والارتباك يغزوني. شاهد من يفترض به أن يكون زوجي حركتي الدفاعية فقطب جبينه وجاهد كي تبقى ابتسامته ثابتة على شفتيه. جلس على حافة السرير، نظر إلي نظرة مشوبة بالحزن. أمسك بيدي المرتعشة، احتواها بكفيه وقال: نوال، لا تخافي، سأكون خير أب لك. أنت في أمان الآن".

مولانا

1

في إحدى الليالي، تحت لحاف السماء المرصعة بالنجوم، اتخذ قراره. لن يستسلم لحياة لم يخترها. بدلاً من ذلك، كان سيشرع في الهروب الجريء عبر البحر الأبيض المتوسط، نحو المجهول. لم يكن يعرف ما الذي ينتظره، لكن اللغز كان أكثر إغراءً من الحياة التي كان عليها.

بدأت رحلة الابن الضال والشاب الضائع. تمكن من التسلل من منزله في جوف الليل، ولا يحمل شيئًا سوى بعض الطعام والماء وكيس صغير من الممتلكات الشخصية. توجه نحو الساحل، وقلبه مع الخوف والبهجة. كان ظلام الليل عباءة له، وهمسات الريح الصامتة رفيقه الوحيد.

وصل إلى الساحل ووجد قاربًا صغيرًا. مع أنفاس عميقة، دفع القارب إلى البحر وتسلقه. وبينما كان يتدحرج في الظلام، أخذته كل ضربة عنيفة من ضربات المجذاف بعيدًا عن ماضيه وأقرب إلى المجهول.

تحولت الأيام إلى ليال، والليالي إلى أيام. كان البحر صديقا قاسيا يختبر قوته، إرادته، وروحه. اندلعت العواصف وتحطمت الأمواج، كل واحدة تهدد بابتلاعه كله. لكن بن بلقاسم لم يرتدع. كانت روحه شرسة مثل العواصف التي اندلعت حوله.

بعد عدة أيام، وصل إلى شاطئ جزيرة غير معروف. لم يكن يعرف مكانه، لكنه لا يهتم. كان حرا أخيرا. حرا في اختيار طريقه، وحرا ليعيش حياته من جديد.

2

فقدت الفتاة عقلها في متاهة شوارع المدينة، وتسابق مع زوبعة من الأفكار والعواطف. ظلت ذكرى القبر المتصدع والتوهج المكشوف مثل كابوس، ورفضت أن تتلاشى حتى في ضوء الفجر المتزايد.

ازدادت حواسها، وبدا لها أن كل ظل إنما يخفي أهوالًا غير مرئية، وكل صوت يتردد هو إنذار مستحضر مشؤوم. قامت بتسريع وتيرتها، وسيطر على قلبها مزيج من الخوف والتصميم.

عندما تحولت إلى زاوية، خرجت شخصية من الظل، واعترضت طريقها. كانت عيون الغريب تلمع في الضوء الخافت، وابتسامة تقشعر لها الأبدان لعبت على شفتيه.

"تتجولين في الشوارع وحدك؟" تراجع الشكل، وبقي صوته مثل المخمل الملفوف حول قطعة من الحديد. "ما الذي يقودك إلى هذا المكان الخطير؟" تعثرت الفتاة للخلف، بالكاد صوتها يهمس: "أنا.. لا أعرف. لقد فقدت.. لقد رأيت شيئًا.. شيئًا غير طبيعي."

اتسعت ابتسامة الغريب، وكشفت عن أسنان بيضاء لامعة. "آه، لقد رأيت ذلك أيضًا، أليس كذلك؟ الحقيقة المظلمة للمدينة، مخبأة تحت حجاب الليل."

قبل أن تستجيب الفتاة، اندلعت ضجة مفاجئة من باحة الكَراج في الجهة المقابلة للشارع العريض. يصرخ الصراخ،

وأصوات معدنية تتصاعد، وصوت خطوات عاجلة ملأت الهواء. تحول تعبير الغريب إلى انتباه، وأمسك بذراع الفتاة، وسحبها إلى الظل.

"يجب أن نذهب الآن". أحسست بإلحاحه الواضح من نبرة صوته وراء اللثام الذي يغطي وجهه.

مع عدم وجود خيار آخر، اتبعت الفتاة الشبح الغامض، وصارت خطواتها تتردد عبر الأزقة المهجورة والشوارع المتعرجة. بدا أن المدينة تتحول وتلتف حولهما، وتكشف عن ممرات خفية وزوايا منسية.

أخيرًا، وصلا إلى مبنى متهدم، واجهته مغطاة بالقذارة والتحلل. دفع الغريب حاجزا معدنيا بركلة قوية من ساقه اليمنى، وفتح بذلك باب الصراخ، ودفع بيده الفتاة دفعا إلى غرفة مضاءة خافتة مليئة بمجموعة من الأشياء المنتقاة لا على التعيين. آلات قديمة، وتحف غامضة، وشموع وقناني خمور معتقة وكؤوس لم تنظف من بقايا المشاريب التي تلحق بظلال الرقص على الجدران.

"نحن آمنون الآن"، قالها الغريب، وعيناه تبحثان عن جسدها. "لكن يجب أن تفهمي، أن المدينة تحمل العديد من الأسرار، وليس من المفترض أن يتم اكتشافها بهذه السهولة".

وجدت في نفسها الشجاعة لكي تقول له بصوت واضح ومسموع: أخاف الغدر، ولا أحب الخيانة. أجابها بسرعة: الغدر والخيانة يأتيان من القريبين لنا. أنا لا أعرفك فلا أغدرك ولا أخونك.

- ولا أنا!
- ولا أنت!

عندما تسلل النور الأول من الفجر إلى الغرفة، عرفت الفتاة أن رحلتها لم تنته بعد. احتفظت المدينة بألغاز أكثر مما كانت تتخيلها، وكانت على وشك الشروع في مسعى محفوف بالمخاطر حيث كان الخط الفاصل بين الواقع والأسطورة غير واضح في ظلال عدم اليقين.

3

دائمًا في العري المقدس، من الرأس حتى أخمص القدم. لم يكن نادرًا ما يراهن هكذا بنفسه، إذ إنه على الأقل كان يساعدهن في تبديل ملابسهن الداخلية، وتمشيط شعورهن أحيانا، وعندما يتعلق الأمر بالهاربات الثلاث، يتهالك مثل اللقمة السائغة من اللحم الأعمق، ليصبحوا "الهاربين الأربعة"، صغيرًا مثل العملاق الذي دفعت عليه تم توليه إلى حد ما ويشبه الهلام، مثل الأعماق الحيوانية، وهناك إلى التوليف، ينحني المخلوق، يرتجف، ارتعاش، الحصول على الأجنحة ولكن في يوم العصا المعني، عندما استغرقت قصة لص الفاكهة الشاملة، ذهب النحل الذي تمسك به، حافي القدمين، وليس تحتها. على الرغم من أنها كانت واحدة من البازلاء، غامضة، صوف، مع المعارف القدامى للنهج والمشارب، فقدت بعض عذريتها وليس كلها، عندما تعالقت معه وانغمست بعد اللدغة الأولى مثل أي شيء آخر -مثل الحزن المعكوس على أنه رائع- بعيدا معه، ليس فقط كما لو لم يحدث شيء، ولكن كما لو كان ذلك بالإضافة إلى ذلك، اكتسب تعزيزها من خلال عملها المزيد من القوة، والمزيد من الانتظار في تسلسل الفتيات الثلاث.

لم يكن يمانع من أن يكون عالقًا، وليس فقط لأن النحل

نجا. كان هناك عدة أسباب. وقلن، وقال، وقالوا. كان الراقي، على ما يبدو مرة أخرى، على عكس المتوقع منه، لا يزال قويا لأنه كان رغم نحافته، جيد الصحة، بلا مشاكل في المفاصل، وبلا ما يعيق تدفق مجرى الدم في عروقه.

الراقي والمرتقي كلاهما في النار. كانت نوال تقتبس وتستعير من المدونة الدينية بمناسبة رمضان. هل احتجت إلى مثل هذه العلامة بعد ذلك؟ في اليوم المعني: نعم ، وإذا تم تخيله مرة أخرى قادمة. لقد قمت بتنظيف ما كان هناك للتنظيف في المنزل والشجرة في الباحة. وجئن ثلاثتهن وضربن قمصانهن أو ثلاثة قديمة -بالكاد جفت في العشب- كما أنا أحب بشكل خاص، معبأة في قناني اللذة، أوقفت المفاتيح وعلقتها تحت رف المصباح الزيتي، الذي كان أثقل بكثير من تلك التي في الضاحية. وليس لأول مرة قبل انفجار الحقد عندما كنت أقمع أحذية الكاحل وأبوس القدم وأصلي للساق والفخذ. يمكنني أن أكون كل شيء في هذا العالم إلا زوجًا من الجوارب التي تنتمي لجسد فواح رطب بض شهي، جربته لثلاث عشرة مرة، وفي كل مرة تنتهي الخرائط التفصيلية للتضاريس بين أصابعي، ولكن هذه المرة انفجرت أربطة الحذاء وبان الجورب الشبكي القاتل فقمت بتكسير رأسي حتى وجدت أنه من المناسب أن أتركني بدون خريطة على الإطلاق. ومثلما غربة أعمى في غرفة مظلمة، علمت أنها نهاية الحلم. نهاية اللعبة.

4

بينما وقفت الفتاة بين الحراس الصامتين في المقبرة، ألقى القمر ظلالاً غريبة عبر القبور. هزتها الرعشة، وهي تجذب سترتها بإحكام حول جسدها الهش. كانت محطة سيارات الأجرة خالية ومهجورة، حيث غادر آخر لواج منذ ساعات

طويلة. لم يكن الفجر قريبًا بعد، وامتدت الليلة بلا نهاية أمامها.

لم تشعر بالوحدة بهذا الشكل في حياتها. كانت قريتها بعيدة جدًا عن حدود العاصمة، وجاء شعور مفاجئ بالفرار إلى تلك الراحة المألوفة لتهدئتها. لكن هذه الليلة، لم يكن هناك عودة لها. لا صاحب فندق لطيف سيستقبلها كالمسافرة المرهقة التي كانت عليها.

اليأس دفعها لاتخاذ قرارٍ. ستتحمل برد الليل وتنام بجوار أقرب قبر حتى يشرق الشمس وتظهر الخلاص في شكل سيارة مارة. وهي تستلقي على الأرض الباردة، كانت سحب الأوراق تبدو كالهمسات للأموات. الصمت كان صاخبًا، مكسورًا فقط بعويل بعيد لكلب جائع ووحيد. أغلقت عينيها، تحاول جاهدةً أن تنام، لكن عقلها كان يجري به الخوف والشك.

وحدثت الواقعة.

تأتي إشراقة خافتة من قبر واحد معين، ضوء يرقص مثل سراب. ببالغ الفضول والرعب، تقترب بحذر من مصدر التوهج غير المألوف.

ما رأته بعد ذلك قد جمد الدم في عروقها.

كان القبر قد انفتح، وكشف عن درج يؤدي إلى الظلمة أسفله. نفثت رياح باردة من الشقّ، تحمل معها همسات أسرار مُنسية ورعب لم يُحكى. حاولت الفتاة أن تصرخ، لكن صوتها تركها، تاركةً إياها مشلولة بالخوف والدهشة.

كان الرجل الشبح يمسك بأشياء لا تستطيع تمييزها في الظلمة. هل هي أيد وسيقان وجماجم وعظام؟ دون تفكير، هربت، قلبها ينبض في صدرها كأنه طبل. أحست به وراءها بإصرار. رأت نفسها وقد طوَّفت في شوارع المدينة، والأنفاس

تخرج منها بزفير متوتر. اندفعت في الأزقة والممرات المتعرجة، وكانت متاهة المباني غير مألوفة ومربكة. كانت غريبة في الليل، كمن دخل متاهة في عالم انقلب رأسًا على عقب بسبب مشهد رآه. وعندما اخترقت الظلال أول أشعة من الفجر أخيرًا، علمت أن حياتها لن تكون كما كانت مطلقًا.

"لقد وقعتِ على شيء قديم وخطير"، بدأ الغريب، صوته منخفضًا ومهيبًا. "المدينة هي متاهة من الأسرار، وأنتِ الآن أصبحتِ مشتبكة في شبكتها الغامضة."

شعرت الفتاة برعشة تنحدر على عمودها الفقري عند سماعها لكلماته. عرفت أنه ليس هناك عودة الآن، ليس هناك هروب من المسار المشيد، الذي يكمن أمامها. لكن شرارة من المراوغة والإصرار تواردت داخل قلبها، إصرار عنيد على كشف الحقيقة، بغض النظر عن الثمن.

"ما هذا المكان؟ ومن أنت؟" طالبت، وصوتها يرتجف من الخوف والعزيمة.

اختفى النظر المقرف الذي كان في عيني الغريب، وذهبت رائحة فمه الكريهة بمرور نهر الشفقة على وجهه. "أنا حارس القصص المنسية وحافظ المعارف المخفية"، أجابها بشكل غامض. "أما بالنسبة لهذا المكان، فهو ملاذ من نوع ما، مأوى لأولئك الذين يبحثون عن ملجأ من أهالي العاصمة المظلمة."

بينما انغرست خيوط الفجر الأولى من خلال النوافذ المغبرة، مُطلقة بريقًا ذهبيًا عبر الحجرة، وقعت عينا الفتاة على كتاب مغبر يرقد على طاولة متآكلة. حركها الفضول كالخيط الخفي الذي دفعها للالتزام.

بأصابع ترتعش، فتحت الكتاب القديم، صفحاته مليئة بالرموز الخفية والرسوم الباهتة. بينما تقرأ، غمرها شعور مرعب، يقلب غريزة بدائية في أعماق روحها.

"هذا الكتاب يحتوي على أسرار المدينة الأكثر ظلامًا"، أوضح الغريب، صوته يرنّ بالجدية. "إنه دليل للظلال التي تسكن خارج الواقع، مفتاح لفتح أسرار مدفونة تحت السطح."

ركض قلب الفتاة بمزيج من الخوف والفرح. علمت أن رحلتها هي بداية فقط، أنها قد عبرت عتبة لا عودة منها ولا مفر. أسرار المدينة جذبتها كأغنية ساحرة، تعد بالخطر والتنوير.

جذبها عنوان "غمسيس: حكاية الراقي والمرتقي"، لكنها لم تفهم شيئا. حينها بادر الغريب يُشوّح بيده، ويطلق كلماته بمستوى صوتي واحد وكأنها نشرة أنباء في إذاعة محلية: "يوما ما ستذهبين إلى مكان ما في هذه المدينة الخائنة. أريهم هذا الكتاب فلن يؤذونك".

اتخذت الفتاة قرارها بزفير عميق وعزم من حديد. التقطت الكتاب المجهول. أخذت يده، وكانت مستعدة لاحتضان الظلام الذي ينتظرها.

يوم واحد يعتمد على الصباح

كان لابد من الخطأ.
والخطأ تحول مسرعا الى خطيئة.
والخطايا أنواع.
فثمة ما يغتفر، وثمة ما ينسى، وثمة ما يضحك في نهاية المطاف. ولكن أيضا، ثمة ما يتسبب بحرق الخيمة على ساكنيها، وثمة ما يفضي الى اقتلاع احدى العيون، أو جدع أرنبة الأنف، أو قطع الأعضاء التناسلية.

مع نوال، كان الخطأ رسالة. وأية رسالة!

فها هي نوال تكتب رسالة إلى الراقي بن بلقاسم:

حظاً موفقاً صديقي الراقي، الراقي بكل تأكيد. لديك طريقك من الآن وينتظرك الاحترام والاعتراف الذي كنت تتوقعه بحق. وفي المستقبل، ستكون الجائزة أعلى وأكبر. اعتمد على نجمتك السعيدة واخطو بجرأة، ولا تحزن، لأن رغبتك ستتحقق لكن مع بعض التأخير. ستلتقي فجأة بإنسان لم تره منذ فترة طويلة. اهتم بوضعك المالي الآن. ادخر ولا تبعثر أموالك على النساء، وسيكون لذلك تأثير إيجابي على مستقبلك.

يوم واحد يعتمد على الصباح.

نوال أحبته، كما أحبته صلوحة وكما أحبته خدوجة، ولكن على طريقتها، فلم تكن تنوي منافسة الرفيقتين اللتين أحبتهما بصدق. لقد أوغلن ثلاثتهن في الحكاية، وتورطن حتى المنكبين، كما يقولون، ولكن لا مجال للتردد والعودة الآن فقد فات

الأوان ولات حين مندم. لقد كتبت له هذه القصيدة التي كانت تغنيها في حمام النساء بالمدينة العتيقة كلما ذهبت لوحدها هناك لتغسل عنها أدران الحياة. وكانت الطيابة أو حارزة الحمام إفريقية البشرة والمنشأ ولا تفقه من العربية شيئا سوى عسلامة وبسلامة، لكنها كانت، والبخار يلفهما والحرارة تذيب المشاعر المكنونة، تتمايل على إيقاعات نوال وهي تغني من مقام الحنين:

أنت الذي تتجول بين النجوم
وتقرأ أسرارها في سكون الليل،
الحزن يجعلك فاسدًا
وتفكر بما هو أبعد من الجنون،
أنت الذي ترى ما لا نراه وتعرف ما لا نعرفه
ربما عندما تنظر إلى النجوم في ذلك العالم
ربما عالم لا يزال حيًا قبل كل الألم
أنت الذي تتأمل الكون بذهول
وتعجب من عظمته وجماله
يجعلك غيورًا على الآخرين، حزنك
أنت الذي تشعر بالصغر أمام هذا العالم الهائل
وتشعر بالرهبة والإجلال منه
يجعلك محبطًا، وأكثر من ذلك بقليل، تعيسا
أنت الذي تبحث عن الحقيقة في النجوم
وتحاول فهم معاني الحياة لتخبرنا بها
أنت الذي تحلم بمستقبل أفضل
وتسعى إلى بناء عالم أكثر عدلا وسلاما
أعياد الميلاد صعبة هذه السنة
بعد أن تلاشت ذكريات الفرح
أنت الذي تؤمن بقوة الإنسان
وتعرف أنه قادر على تحقيق أي شيء لو أراد

أنت الذي يجعلك الحزن فاسدًا
لتفكر في ما هو أبعد من الجنون
يؤلمك البحث وها قد مضت ثلاث من السنون
ولا يمكنك التخلي عن العائلة،
أشتاق إليك يا أبي!
أنت الذي يسافر في الليل منفرداً
يحمل بين يديه تلسكوبه
يتبع النجوم ويكتشف أسرارها
يبحر في الكون اللامتناهي
أنت الذي قارئ النجوم هو اسمك
في عالم الكواكب والمجرات
هل ترى ما نراه نحن بالعين المجردة؟
أنت الذي اسمك المغامر والمقامر والرومانسي
المتجول المترحل جواب الآفاق في اللامتناهي
أنت الذي لا تخاف الظلام لكن قلبك
لا يزال حيًا ينبض قبل كل ألم
سيجعلك ذاك حنونا على أهلك
الذين لديهم قلوب سادرة
ويجعلك حزينًا مثل شتاء فاسد
تفكر في ما هو أبعد من الجنون
تفكر في العواطف البعيدة
عندما تنظر إلى النجوم.
والآن، بعد أن تلاشت ذكريات الفرح
وضاع حلم التخلي
أيؤلمك البحث وقد مضت الزفرات
ولم تتمكن حتى من التنهيدة..؟
اشتقْ إليهم يا أخي!

مقهى الركن الأسود

1 صلوحة/

لقد حدث ذلك عندما حكمت على صدق المشهد ، بشكل عام، لفيلم حياتها. ليس بعد ما رأته بأم عينها، بل بعد ما سمعت عن ضرورة إضافة شيء من الضحك إلى رائحة الجنس في السرير.

لم تستطع إلا أن تشعر بشيء من عدم الارتياح لأنها شاهدت الفيلم يتكشف أمام عينيها. بدت الشخصيات مألوفة للغاية، لكنها أجنبية في نفس الوقت. لم تستطع التخلص من الشعور بأن هناك شيئًا ما قد توقف، وإن القصة التي يتم سردها لم تكن صحيحة تمامًا.

عندما لعبت دور المشاهد المحايد ، وجدت نفسها تتساءل عن صحة العواطف التي يتم تصويرها. بدا الضحك قسريا، والعاطفة مفتعلة. كان الأمر كما لو أن الممثلين كانوا يمرون فقط بالاقتراحات، ويتظاهرون بأنهم يشعرون بشيء لم يفعلوه.

المتفرج فارس. كثيرا ما تسمع هذا المثل دون أن تفهم معناه بالضبط. ثم سمعت ذلك. الشائعات التي بدأت كهمس، القيل والقال، الصمت الذي انقضى خلف الأبواب المغلقة. الحقيقة حول ما حدث حقًا وراء الكواليس. الأكاذيب، الخداع، الخيانة.

المتفرج فارس النهار. ثم أدركت أن فيلم حياتها لم يكن انعكاسًا حقيقيًا للواقع. لقد كان واجهة مصممة بعناية، وهو وهم تم إنشاؤه بعناية وتصميم للخداع والتلاعب.

وهكذا اتخذت خيارا. اتخذت خيار اختيار التحرر من حدود النص ، لإعادة كتابة قصتها الخاصة ، للعيش حياتها بشروطها الخاصة.

وبينما شرعت في مغامرتها، تعهدت بعدم التأثير مرة أخرى بالوعود الخاطئة للشهرة والثروة. كانت تبحث عن الحقيقة، بغض النظر عن مدى إيلامها، وستعيش حياتها بصدق ونزاهة.

لأنه في النهاية، عرفت أن الطريقة الوحيدة لتكون حرة حقًا هي احتضان الحقيقة، بغض النظر عن مدى صعوبة مواجهتها. وهكذا انطلقت في رحلتها، مصممة على العثور على طريقها الخاص، للعيش حياتها بشكل أصلي وبشكل غير اعتيادي. وهذا الراقي يبدو انه يصلح بطلا لفيلم حياتها الوثائقي الجديد.

قريبة جدا من ذلك الذهب، ذهب العلاقة، كان صوت لص الفاكهة المحرمة ينادي بأعلى طبقة ممكنة. فاكهة لذة، تنبت، تبقى هشة كما هي محددة - هشة وحراما. ذهبت اكثر من أي وقت مضى. وماذا إذا انزلقت؟ إذا كنت أتذكر بشكل صحيح؟ (تاريخنا متخلف قليلاً في الوقت المناسب وليس شيئًا مميزًا متفوقا؛ على سبيل المثال ، شيء مثل كيف حالك يا حلوة؟ متى ستذهبين معي الى الفراش؟).

(الآن فقط تعود بها الذاكرة إلى منزل أهلها القديم). لقد تم استجوابهم بشأن الدفء العائلي والتلاحم الأسري وما إلى ذلك من الترهات. ماذا؟ هل انتقلت نهائيا يا ربي؟ ما الذي يقلقك في

حل مثل ذلك من شأنه أن يتحول إلى ركن الوقت الوحيد في القصة بأكملها التي تروق للص الأغوار شخصيا. (كيف يمكن أن تعتقد أنها كانت ستحصل على الطريق في هذا الوقت الأول والوحيد؟).

كان صوتها يعلو ويعلو ، وهو صوت أصبح في الوقت الحاضر نادرًا، أو قد يكون ذلك نادرًا في جميع الأوقات، صوت الشبق العنيف الهادر الغني بالرعاية ، دون نغمة أي اعتبار لمن هم في الخارج، وهو قبل كل شيء صوت الصبر ، صبر الصبر ، الصبر على حد الإذلال مع الأنذال الذين سبقوا. لكن مع هذا الشيخ الذي يخفي شبابه، ومع الرفيقتين المناضلتين في الساحة الدولية للعري والمجون والشعر والشراب، ثمة حرية تتلمسها. تتنفسها. سواء كنسمات هواء أم كحقائق مادية على الفراش، بل وأكثر من ذلك، مثل ممتهنات المهنة السائدة سوى أنه لا مال في حكايتهن ولا ابتزاز ولا تهديد ولا فضائح، بل هو حب في حب، حب بحب، صداقة بصداقة، اقتسام عادل ومتساو لرجل لا يتوقف عن الشهوة ولا يفرق بينهن في العشق والغرام، بمعنى "إعطاء كل ذات حق من الثلاثة حقها دون تمييز بينهن، وبالطبع، دون استراحة.

أن يكون للنساء مجسات مذهلة فهذا ما لا يختلف عليه اثنان من قبيلة الرجال. ومع ذلك، كان هذا بالضبط ما جعل العجلة تدور باستمرار، وفي خطر أن تصاب بالذهول، ربما هي آلهة للحب أو لصة للفاكهة، أنت قوي للأبد. صحيح. أشكرك صلوحة. أنت جميلة للأبد. ومع إن الاجتماع لا يزال طنينه في الأذنين بعد عدة سنوات، فهي تعتقد أنه يناسب بشكل جيد ما أجاب عليه ممثل هزلي عندما تلقى في مقابلة تلفزيونية سؤالا من أحد المشاهدين كيف يساعده صوته في لعب بطولة القصة في الفيلم المذكور؟

اتضح فيما بعد إن الأمر كما لو أنهم لم ينتهوا قط من مجامعات الصيف إلى شقق العطلات أو الدردشات في المقاطعات النائية لشتاء الوطن القارس. لقد وقفت ذات يوم وراجعت نفسها ووجدت حالها منغمسة في الوحل حتى الركبتين ، لكنها مع ذلك انتقلت من هذا الجانب إلى ذاك إلى الأبد، أبعد من بعيد الأبد، بعيدا عن مدينتها، عن عائلتها، ثم ها هي تعود إلى المناطق المنزلية من بيوت الأسلاف، إلى دموع الأمهات، إلى أرض الأجداد الجبلية الملطخة بالحناء، إلى سوق المنزلين، إلى البحر الشرقي للجهة، إلى الخليج الذي يغدر بأبنائه الحارقين، وقبل كل شيء، إلى السهوب المترامية من شمال الوطن الى جنوبه. كم وقف الخليج فارغًا، وعلى عكس البحار السابقة وتاريخها، كان الصيف خلال الأيام والليالي يكفي لتشغيل الإنذارات كافة، ولفترة طويلة، بلا كلل أو ملل.

طوال الصباح، وكذلك الصباح الذي من قبل، كانت هادئة، على مدار ست ساعات متواصلة، وانتشر الخبر أكثر فأكثر، انتهت حدود الخلجان وركعت موجات المد والجزر، وبالكاد انقطع دبيب ضربات قلبها . هي ذاهبة اليهم جميعا، وستفي بما وعدت، وبدلا من إضاعة الوقت في التفكير والشك وضرب الأخماس بالأسداس، ساعدها تيار هواء دون تدفق معين على حزم حقيبتها للمبيت لليلتين متتاليتين، وستضع الحرقوص ظاهريًا، على الجلد، على الذراعين، على الفخذين، على الثديين، على معبد اللذة، فإن الرفاق الثلاثة يحبون إقامة طقوسهم المشعة هناك. فأن لا نصل هو الأسهل، لكن أن نصل بإمدادات الهوى الذكية وجنون الشغف، هو الطريق الأكثر وعورة لاجتياز جبل الحقيقة.

2 خديجة/

تقف في زاوية بعيدة عن الباب بمقهى "الركن الأسود". رآها تتقدم بين الطاولات وتلتفت يمنة ويسرة بحثا عنه. تأملها والارتباك باد على خطواتها التي توتر إيقاعها، وزادت التفاتاتها المتواترة. حسمت أمرها بأنها ستجلس في أقرب طاولة شاغرة. حين رآها تفعل ذلك وتقصد الطاولة التي تجانب طاولته، رفع يمناه وأشار إليها، فحولت مسارها نحوه. خبطت حقيبتها على الطاولة مما جعل بعض الرواد يلتفتون إليهما وسط انهماكهم في الحديث، وعاتبته قائلة:

_هل رفعت يدك لكي ترفعها، أم لكي تعلمني بوجودك؟
_مراقبة ارتباك المرأة قمة في المتعة، ولم أرد أن أفوت هذه الفرصة.
_وهل نحن في موعد غرامي نسرقه خوفا من عين عذول؟
_ الأمر يشبه ذلك تماما، موعدنا هذا رتبه نوع من الحب.
_الحب؟
_نعم الحب، بدأ ذلك منذ زواجك. كنت أتسقط أخبارك وأحاول أن أكون قريبا منك أينما كنت..
وأحجم عن إكمال بقية كلامه وهو يرى رعدة تجتاحها وتجعلها تجمع ذراعيها على صدرها بقوة. وسكن الخوف عينيها، وخيم الصمت عليها فامتنعت عن التعقيب في حين انطلقت أناملها تلهو بمكعب سكر لم تضعه في فنجان القهوة لوقت يسير. ثم بهدوء عميق ركزت نظراتها في عيني جليسها وسألته:

_من أنت، وماذا تريد مني؟
_أريد أن أكون جزءا من حكايتك أو بطلا في قصتك!
_قصتي؟ وما قصتي؟
يومها كنت حاضرا في حفل تخرج دفعة 2020 بكلية الطب. شدت أنظاري نحلة من المشرفات على تنظيم الحفل لا يفوتها

أمر ولم تترك شيئا ناقصا أو أمرا للصدفة، ما شدني اليها ثقتها العالية بنفسها وشجاعتها التي تنطق بها نظراتها والكل يحبها ويتودد إليها، عدا واحدة تناصبها العداء كانت تجلس أمامي يومها، وبين الفينة والفينة ما تفتأ تتحدث عنها بامتعاض. كان الأمر مسليا أن أكون شاهدا لأول مرة على غيرة النساء. حين تسلمت نحلتي شهادة تخرجها أشرت اليها وقلت لأخي مدعيا ومتسائلا:

_كأنني أعرفها. وجهها ليس غريبا!
ضحك أخي وأجابني بغمزة:
_اطمئن إنها متزوجة وزوجها طبيب معروف هنا في روسيا.
_تبدو أصغر بكثير من أن تكون متزوجة؟
_وتلك قصة أخرى!
_كيف؟
_هل أقص عليك نبأها على طريقة شهرزاد أم سندريللا؟
_وماذا تفقه أنت في حكايا النساء؟
_الكثير. فقط اسمع!
وطفق الأخ يحكي:

"منذ سنوات، تصدر موضوع زواج احدى القاصرات الصحف والشاشات. فتاة عمرها أربعة عشرة سنة توفي والداها في حادث مأساوي، لا عم لها ولا خال سوى خالة قاسية القلب بعد أن نصبت نفسها وصية على الأملاك تمهيدا للاستحواذ عليها، فزورت تاريخ ميلاد ابنة أختها بالتعاون مع رئيس البلدية وزادت في عمرها خمس سنوات كاملة من اجل أن تصبح في سن الرشد ويتسنى لها تزويجها. جاء الزوج سعيدا لمرافقة عروسه بعد زمن من الوحدة وأشباح الذكريات تحاصره وتدمي ملامحه أينما ولى. والغريب أنه لم يقابلها قبل الزواج أبدا. فقد رجع إلى البلد في إطار بعثة أممية صحية تستهدف المناطق البعيدة والحدودية. وقد عرج في طريقه إلى بلدته التي

ولد فيها وتعيش فيها أخته الوحيدة التي أصرت وألحت أن يتزوج فلا ينفعه الهروب لأن الوحدة ستقتله. في النهاية رضخ وتكفلت هي بالموضوع إذ اختارت له العروس وخطبتها بدلا عنه لأنه التحق بالبعثة على أمل أن يعود بعد شهر لإتمام مراسم الزواج. وعند عقد للقران ناب الفتاة زوج خالتها، لكنه تفاجأ ليلتها، حين اكتشف أن عروسه لم تكن سوى فتاة صغيرة لم تبلغ سن الرشد بعد، لما رفع طرحتها التي تغطي وجهها وجد أمامه طفلة ذات وجه ملائكي تبكي في صمت. وجم أمامها ولم يجد ما يقوله فاذا بها تسأله سؤالا حطم كيانه "هل أنت أبي الجديد؟".

3 نوال/

لا تدري كيف تسربت رسالتها التي بعثت بها إلى صفحة منظمة الإغاثة الدولية، ثم إلى الإعلام العمومي. كان ذلك منذ شهر تقريبا، وها هي تلك الرسالة الآن تتصدر مواقع التواصل الاجتماعي والصحافة العالمية بعد أن تمت ترجمتها وصارت "تريندا" يغزو العالم، ومعه آلاف التعليقات المساندة تحت هاشتاگ موحد هو #كاوروك_يعود_لنوال، بشتى اللغات واللهجات. آلاف القلوب تعاطفت معها دون أن يعرفها أصحابها. هذا العالم السيبراني ما يفتأ يفاجئها بإنسانية مرتاديه. لن تعوض الأزرار القلوب في خفقانها ومشاعرها النبيلة مهما تحكمت بنا الآلات واختفينا خلف الشاشات والأقنعة الافتراضية. كتبت تعليقا في نفس الهاشتاگ تشكر فيه كل من تفاعل مع رسالتها وساند عودة "كاوروك" مؤكدة أن الإنترنت قد وحد العالم، لكن قبل ذلك راية الإنسانية قد خفقت فوق الجميع. ثم نشرته. ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى وصلتها رسالة عبر المسنجر قرأتها بنهم وصرخت فرحا.

رن هاتف المنزل. لم تشأ نوال الرد من فرط سعادتها، لكن يبدو أن المتصل لحوح فعاود الكرة. بدا رنين الهاتف الأرضي طويلا أكثر من المعتاد وفيه نشاز غريب لم تنتبه إليه من قبل. توقفت تستمع إليه دون أية نية بداخلها للرد، لكنه توقف عن الرنين. وسرعان ما عاوده. استمرت نوال في جمودها وسرح خيالها مع صوت الهاتف. لم تنتبه إلا وزوجها يلكزها بكتفها ويسألها عن سبب عدم ردها، ثم رفع السماعة وسأل عمن يكون الطرف الآخر على الخط. ثم أشار إليها بأن المكالمة تخصها. كان أحد الصحفيين يطلب لقاءها وإجراء حوار صحفي عن الحرب والفقدان، وحكايتها مع كاوروك. رفضت في بادئ الأمر لكن يبدو أن الصحفي لم يدخر جهدا في إقناعها فوافقت في الأخير أمام إلحاحه الشديد. واتفقا على الوقت والمكان.

لم تتخيل بعد هذه السنوات العديدة وبعد أن همدت ذاكرتها وخفت وطأة أحزانها على فقدان أهلها وبيتها أن تصطدم بخبر يعيدها إلى البداية ويهيج ما بدأ يستريح في الذاكرة والحشا. وهي تتصفح موقع التواصل الاجتماع فيسبوك اعترضتها صفحة لمنظمة عالمية ناشطة في مجال حماية الطفولة تنشر خبرا ممولا: "بيع بالمزاد العلني، عطايا الأطفال لمساعدة الأطفال" يصاحب الخبر مقطع فيديو ترويجي يستعرض اجمل مقتنيات الأطفال الميسورين، تبرعوا بها لمساعدة المنكوبين منهم. شغلت المقطع وشاهدت فساتين جميلة التصميم رغم لونها الباهت بسبب الغبار وقمصان صغيرة ملونة، أحذية ما تزال جديدة، حقائب مدرسية عامرة بكتبها ودفاترها وأقلامها وبعضها تتأرجح بسحابها لعبة صغيرة.. مضى الفيديو يستعرض الكثيرة من الأشياء التي كانت يوما ما ملكا لأطفال إما ماتوا تحت القصف أو أجبرتهم الحرب على الهرب مخلفين كل شيء وراءهم. أصابتها قشعريرة وهي تتخيل

بكاءهم لفقدانهم لعبهم وأدواتهم أو القصف الصاروخي يرديهم وهم يحتضنون ملابسهم الجديدة فرحا. وانخرطت في نشيج سرعان ما تحول إلى شهقة دهشة وعيونها تطالع في الشاشة الدب كاوروك مثبتا في إحدى زوايا المعرض. لا يمكنها أن تخطئه فاسمها ما يزال ظاهرا على قماش أذنه اليسرى مدونا بحروف إنكليزية رغم تنظيفه ومحاولات إزالة الحبر الأسود الذي أفسدت به اللون. كانت تشعر أنه سيضيع عنها يوما ما وأنها لن تجده إلا عن طريق علامة مميزة. فكانت كلما بهت لون الحبر على القماش أعادت كتابة اسمها بإصرار كي لا ينمحي حتى لو تمزق القماش. يبدو كاوروك مترهلا قليلا، لكنه ما زال يحمل عنفوان دب وَفِيّ لا يترك صاحبه. ضغطت على أيقونة الرسائل وكتبت رقم كاوروك في المعرض ورسالة. اسمه كاوروك، صديقي ورفيق طفولتي لسنوات كثيرة، أهداني إياه أبي في أول يوم دخلت فيه إلى المدرسة لأول مرة. كنت وحيدة أبي وأمي. كانا يعرفان حاجتي لرفيق مؤنس نظرا لانشغالهما بالعمل طوال الوقت فأمي ممرضة تضطر أحيانا للعمل بالليل وأبي مدير مدرسة شغوف بعمله إلى درجة انه ينسى العودة إلى البيت مبكرا وينسى أني وحيدة بعد ذهاب أمي إلى عملها. فكنت أنزوي في غرفتي أتوسد كاوروك وأداعب فراءه فإذا ما استبد بي الخوف بكيت قليلا ثم مسحت مآقي بأطرافه العلوية. كان من عاداتنا أنا وكاوروك أننا نسرد قصصا، أنا أحكيها وهو يستمع بانتباه شديد. لم يحدث أن قاطعني أو سألني عن شيء. كاوروك كان أول من شجعني على اختلاق القصص، فقد تنفذ ذخيرتي من القصص التي أحفظها عن ظهر قلب فأقرأ ما توفر منها ورقيا فإذا أصابني الملل أنخرط في لعبة الاختلاق، أتخيل أحداثا وعوالم كثيرة غير تلك التي نعرفها. لكم يستهويني أن اكتشف مدنا وأبنيها في خيالي وأماكن لم تكن موجودة أصلا، كاوروك كان أول من اكتشف معي قدرتي على التأليف فصرت لاحقا كاتبة مميزة. كاوروك أيقونة الحب والحظ عندي

فأرجوكم دعوني ألتقي به ثانية مهما كان سعر استرجاعه. ذيلتْ الرسالة باسمها الكامل وعنوانها المفصل وأرسلتها عبر بريد الصفحة وكلها رجاء بأن يعود كاوروك لعلها تعود إلى الكتابة من جديد.

كانت نوال، الفتاة الصغيرة من أقاصي الجنوب التونسي، روحًا حرة مثل طائر. كانت أحلامها واسعة مثل السهول الصحراوية التي تمتد إلى ما وراء قريتها الصغيرة. ومع ذلك، كانت أحلامها على وشك أن يتم قتلها بسبب زواج مشؤوم.

رتبت خالتها زواجها من رجل أكبر منها سنا، ومن عائلة ثرية. لقد اعتقدت أن هذا أفضل ما يمكنها فعله للتخلص منها، وتأمين مستقبلها في مجتمع كانت قيمة المرأة فيه تقاس غالبا بوضع زوجها. ومع ذلك، فقد كانت للفتاة خطط أخرى. كانت أحلامها في الحرية والمغامرة قوية جدا بحيث تجعلها تتخلى عن زيجة لا ترغب فيها.

رياح العالم

_ *فيلم روائي طويل بعنوان: نوال*
_ *سيناريو وإخراج: صلوحة*
_ *تصوير ومونتاج: خديجة*
_ *فكرة وإنتاج: نوال*

(الممثلون حسب الظهور على الشاشة: صلوحة، خديجة، نوال وبن بلقاسم. وهذه هي أسماؤهم أيضا في الفيلم، هكذا، بدون ألقاب عائلية. كلهم التقوا ولم تكن لأي منهم عائلة فلماذا يحتاجون لقبا يجرهم للخلف ويذكرهم بانكسارات كثيرة؟)

نبذة عن الفيلم: ثلاث صديقات متعلمات خريجات جامعة يقودهن الفضول والبحث عن الحظ الذي يفلق الحجر إلى زيارة أحد الشيوخ الرقاة. بعد زيارات كثيرة نمت علاقة بينهن وبينه، علاقة مبهمة اجتمعت فيها الصداقة والحب والمشاركة والنميمة والأسرار. يجب أن يلعب الراقي لعبة حظه ويختار أي منهن تصلح لمستقبله وأي منهن مناسبة لسريره. اختياره خلف مأساة وحكاية.

صلوحة في مكان ناء ولا يمكنها أن تملأ البطاقة الفنية للفيلم وإرسالها إلى المسابقة، فتكفلت هي بالمهمة. وضعت نوال النقطة وشرد ذهنها يلتقط الذكريات.

سوء الأحوال الجوية جعل ثلاث طائرات تنزل اضطراريا في مطار إسطنبول الدولي. كل طائرة قادمة من مكان والوجهة واحدة. طبيبة قادمة من روسيا للمشاركة في مؤتمر علمي، ومخرجة أفلام وثائقية قادمة من السويد للمشاركة في مهرجان سينمائي، أستاذة وشاعرة قادمة من ألمانيا للمساهمة في تظاهرة أدبية وتكريمها بعد حصولها على جائزة. ثلاث مبدعات جمعتهن الصدفة في مقهى المطار حيث جلسن إلى الطاولة الوحيدة الشاغرة في المكان وطلبن نفس الطلب، قهوة وكرواسون. الدهشة جعلتهن يطلقن العنان لضحكاتهن خاصة بعد أن اكتشفن أنهن من نفس البلد وكان تواصلهن الأول باللغة الإنكليزية وجلوسهن على نفس الطاولة. تبادلن أرقام الهواتف وكل طرق التواصل المتاحة على مواقع التواصل المختلفة. وافترقن على وعد سريع باللقاء في البلد. كن متواجدات في أماكن قريبة لهذا أصررن على اللقاء سريعا.

اتفقن على الهروب من فعاليات التظاهرات اللائي يشاركن فيها متى سنحت الفرصة واللقاء وسط العاصمة. في مقهى صغير بنهج القاهرة تجمعن حول طاولة صغيرة، طلبن نفس القهوة وانطلقن في حكايات متشابهة. يتيمات بلا أهل، كل واحدة أبعدها أقاربها أعطية لرجل كبير من أجل الحصول على ما تركه لها الأهل. هل يعقل أن تكون الصدفة محكمة بهذا القدر؟ ليست صدفة بقدر ما هو لعب الأقدار والمصائر. المتشابهون يلتقون دوما في إحدى محطات الحياة.

1/ صلوحة

عندما مات والدها لم تكن تفهم ماذا يعني ذلك. كانت لم تتجاوز السنتين من عمرها بعد. إثر عاصفة هوجاء غرق مركب والدها البحار ولم يعثروا على جثته ولا من معه من

البحارة. بعد فترة عثر الغواصون على حطام المركب مستقرا في قلب البحر. كانت وحيدة أبويها. تركها أبوها في ريعان شبابه، وترك لها صدى شهامته في حكايا أهل قريتها الساحلية وفي هدير البحر الذي لا يتوانى عن إخافتها. ومن فرط حزن أمها على زوجها الذي مضى دون أثر يعزيهم ماتت بعده بسنة. وبقيت صلوحة وحيدة. كفلها عمها حتى كبرت وفي سن الرابعة عشر زوجها لكهل يعيش في السويد. رافقها إلى هناك بعد شهر واحد من الزواج وبعد أن تواطأ مع عمها على اقتسام إرثها. كبرت صلوحة وهي لا تذكر من والديها سوى ملامح بعيدة رأتها في صورة مهترئة وحيدة. وانطلقت تبحث عن وجهيهما بعين الكاميرا. إلى الآن لم تعثر ولو على نصف وجه واضح منهما. وليسكت زوجها ضميره أغدق عليها من ماله وحنانه وشجعها على مواصلة الدراسة. لكنه بعد سنوات قليلة مات بمرض خبيث. أرسلت جثمانه إلى أهله وبقيت هي في السويد وقد ورثت ماله وأعماله وأسست لنفسها عملا يوافق شغفها في إنتاج الأفلام الوثائقية. لقد قطعت كل صلة مع قريتها الساحلية، وهذا اللقاء شاهد على أول زيارة لها للبلد بعد سنوات من القطيعة.

2/ خديجة

غريب ذلك الارتباط الذي تبديه خديجة بمدينتها الصغيرة. مدينة حدودية شبه منسية تعيش على التهريب وبعض الأنشطة الفلاحية المحدودة. ومن الطبيعي أن يكون والدها مهربا. كان يمتلك سيارة دي ماكس ببابين فقط. صندوقها الخلفي وسع لسلع مهربة لا تخطر على بال. بنى لهم بيتا كبيرا على أمل أن تزدهر تجارته أكثر وينتقل إلى العاصمة مع عائلته. خديجة كانت في عمر الخمس سنوات مدللة والدها. كانت

ترتاد الكتاب وبدأت تفك أولى الحروف قراءة وكتابة. كان عيد الأضحى على الأبواب ترجت أمها زوجها بأن ترافقه إلى البلد المجاور لشراء متطلبات الاحتفال بالعيد. ويا للأسف وافق بعد أن اتفقا على أن تبقى خديجة عند خالتها. ذهبا للتسوق ولم يعودا. لقد ماتا في حادث مؤسف بعد عملية مطاردة مع وحدات الأمن. السيارة كانت معروفة ومستهدفة دائما. عاشت خديجة عند خالتها بعد أن استولى أعمامها على البيت ونهبوا كل ما وجدوه من مال وسلع مخزنة. حينما كبرت قليلا أجبرتها خالتها على الزواج من أول شخص طلبها. كان أستاذا في إحدى جامعات ألمانيا يفوقها بسنوات كثيرة ولكنه كان طيبا وسمح لها باستكمال دراستها حتى تفوقت وأصبحت أستاذة زميلته في الجامعة وشجعها على الكتابة فغدت شاعرة معروفة. في إحدى ليالي عطلة نهاية الأسبوع عاد زوجها مخمورا وحينما فتحت له الباب هجم عليها ضربا وركلا ظنا منه أنها زميلته في العمل التي لا تتوانى عن احتقاره والتنمر عليه. ليلتها أسقط جنينها الذي تحمله بعد معاناة في شهره الثامن وألزمها الإقامة في المستشفى لأيام. كان أول عمل قامت به بعد خروجها من المستشفى الإبلاغ عنه وتوكيل محام لقضية طلاق. بعد ثلاثة أشهر تخلصت منه بعد ترحيله إلى البلد.

3/ نوال

وأنت يا نوال خرجت بأخف الأضرار، صحيح جرح فقد الآباء لا يندمل غير أنه مع وجود أناس تواسيك بصدق وتخفف عنك مصابك سيرتاح الجرح وتتجاوزينه. وتجاوزت أنت محنتك يا نوال. عشت مع زوج كان بمثابة الأب. لم يقترب منك يوما ولم يترك لك مجالا لتشعري بالخوف منه. كان شهما بحق، طباعه الجنوبية لم تفارقه رغم السنوات الكثيرة التي

أمضاها في روسيا. لقد طلقك بمجرد أن حصلت على وظيفة طبيبة في المستشفى. وبقي يرعاك من بعيد، فيا لَحَظك.

وصول رسالة نصية قطع شرود نوال وركضها خلف الذكريات. كانت صلوحة تذكرها بضرورة إرسال كل المتعلقات الخاصة بالفيلم إلى لجنة المسابقة. ذلك اليوم كان آخر يوم لقبول الترشحات. أضافت نوال الصورة الإشهارية الخاصة بالفيلم حيث يتوسطها وجه بلقاسم مقلوبا لحيته الكثة تحتها فم مفتوح يلهج بالأذكار بلا توقف ثم أنف حاد وتحته عينان جاحظتان كأنهما تنظران إلى مسخ طارئ وجبهة عريضة تحتها شعر أشعث لململه بطاقية خضراء. يا لها من ملامح تستوقف كل من يراها للسؤال أهو شيخ أم شاب؟ كتبت نوال البريد الإلكتروني وأرسلت الملف. أرخت ظهرها على مسند الكرسي واسترخت. زحفت إليها الذكريات رغما فاستسلمت.

قالت صلوحة: اليوم سآخذكما إلى مكان لن تتوقفا عن العودة إليه؟

وقادتهما عبر الأزقة والأنهج الضيقة للمدينة العتيقة حتى وصلن دارا قديمة. عبرن البوابة الثقيلة المواربة ثم نزلن عبر درج إلى طابق تحت الأرض. بدا كمخزن مليء بالكراكيب تخنقه الظلمة ورائحة ثقيلة من أثر العفن والرطوبة. دلفت صلوحة إلى الداخل وتركتهما عند الباب، وبعد لحظات عادت إليهما وأومأت لهما بالدخول. وجدتا نفسيهما أمام شيخ يجلس في صدر المكان يعتمر طاقية خضراء يرتدي جبة خضراء مطرزة بالأصفر ملامحه لا تكاد تظهر بسبب لحيته الكثة وحاجبيه العريضين.

ثلاثتهن عوضا عن البقاء أسبوعا واحدا في البلد، مددن مواعيد الطيران والعودة إلى ما بعد أسبوع إضافي. وحين رجعن

كل إلى بلد إقامتها اتفقن على العودة وقضاء عطلة الصيف سوية مع "بن بلقاسم" مولانا الراقي.

كانت أكثر العطل إثارة ومغامرة بالنسبة لهن جميعا.

حرّ لا يطاق ورطوبة في أعلى مستوياتها، الصيف في البلد تعيس لكن فيه من الحلاوة والجمال ما ينسي المرء منغصاته. بسرعة تجاوزت النساء الثلاث البوابة ثم نزلن الدرج المؤدي إلى القبو وقهقهاتهن تسبقهن. دفعن الباب ودخلن دون إذن. لقد أصبحنا جزءا من المكان ولهن الحق في فعل أي شيء بحق الصحبة التي أنبتت جذورا تحولت إلى شجرة. صحبة من مع من؟ إنها صحبة نوال وصلوحة وخديجة وقهقهاتهن مع الراقي بن بلقاسم. لزمن الصمت بمجرد أن نظر إليهن نظرة عتاب ورفع حاجبيه في إشارة إلى من يوجد معه في القبو. امرأة تجلس على السرير القديم بينما ابنتها تجلس أرضا قرب مائدة قصيرة حيث يجلس وراءها الراقي ويضع يده اليمنى على رأس الفتاة ويقرأ: "بسم الله بسم الله بسم الله بسم الله بسم الله بسم الله بسم الله...وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين...". ويكرر ويعيد القراءة حتى ليظن السامع أنه لن يسكت. لكنه سكت حينما استشعر أن الفتاة يكاد يغمى عليها. رفع يده عن رأسها، ومن طشت بجانبه غرف غرفة ماء وسكبها على وجهها فاستفاقت في الحال. كان من عادة الراقي أنه إذا غشي الإغماء إحدى زائراته يحملها إلى سريره القديم حيث يجعلها تنام باسترخاء ويعود لإقناع رفيقتها بالانتظار خارجا. فإذا ما نجح في ذلك فإنه يقبل على النائمة إقبال صياد على فريسته وينهشها بسرعة. كان لا يفوته أن يتوخى الحذر، فهو لا يبالغ في إشباع رغباته مع الفتيات الصغيرات. ويكتفي بمداعبات ساخنة تجعله لا يبرح جوارها إلا وقد استمنى فوق ساقيها. ثم يقوم بتنظيفها وإيقاظها. أما النساء فيعاشرهن معاشرة كاملة دون خشية. هو يعلم أنهن يرغبن بذلك ففيهن من تتعمد

الإغماء حتى تمنحه فرصة لمضاجعتها. لكنه منذ فترة كف عن ممارسة عادته تلك. منذ أصبح صديقا لنوال وصلوحة وخديجة الثلاثي المرح كما يسميهن.

صرف الأم وابنتها بعد الاتفاق على موعد جديد للرقية الشرعية، واستقبل صاحباته ببشاشة. قرّبن صناديق خشبية قرب مجلسه وجلسن حوله. أخرجت صلوحة من حقيبة بجانبها قوارير جعة رصفتها على الطاولة وصففت علبا بلاستيكية مستطيلة مليئة بالمكسرات والجبنة. ودعتهم للتسلية. كان بن بلقاسم يجترع الجعة وهو يحملق بالثلاث فراشات اللواتي يستعرضن جمالهن أمامه.

1/ صلوحة

الفتاة القادمة من الساحل عنيدة ومتهورة وشجاعة تصلح رفيقة للذائذ السفر. سيكون شيئا عظيما أن يستيقظ صباحا في فراش وثير بإحدى غرف فندق فخم ويجدها بجانبه عارية. قامتها ممشوقة وعضلاتها الرياضية نحتت جسمها نحتا لا زوائد فيه، تصلح نجمة في مجال السينما. آه لو تتحقق رغبتي وأقضي معها ليلة حمراء على أرض إحدى جزر المالديف. العاهرة لم أقدر عليها حينما أتتني أول مرة لوحدها. أيبقى مطلبي مجرد حلم؟

2/ خديجة

أما هذه فرغم ليونتها فهي صلدة كحجر أصم أليست من قرية حدودية بالوسط، ورثت عنادها من أبيها المهرب، وذلك طبيعي. لكنها تبدو شهية. وزنها الزائد جعل منحنياتها بارزة بقوة. يا

إلهي كيف أتحمل قربها دون لمسها؟ امرأة من شدة اكتمالها تصلح أن يخون الرجل زوجته معها. فعلا يليق بها دور الزوجة السرية بمرتبة عشيقة. من يدخل سرير لذتها لن يغادره. آه لو تأتيني بمفردها سأحتجزها لأيام طوال، وأنهشها نهشا.

3/ نوال

تبدو مثيرة رغم مسحة البراءة على وجهها. جنوبية، ورغم معيشتها في روسيا فهي لم تتخل عن ارتباكها وحرجها وادعاء الحياء حين الضرورة. نوال نموذج رائع لزوجة أكون معها عائلة وننجب أطفالا. هي لا تردني عنها أبدا، وتشارك صديقتيها الفراش معي، ولكني مع ذلك أفكر أن أتزوجها. هذا نصيبك مني يا نوال فماذا أفعل لك؟ لكن هيهات أن ترضي بي زوجا وأنت الطبيبة المرموقة والثرية. لكن، لعل الله يحدث أمرا.

شرب الراقي بن بلقاسم قوارير كثيرة بسرعة وتحولت أفكاره ونواياه تجاه رفيقاته إلى مشاهد خليعة في ذهنه. ما الذي يمنعه أن يكون معهن في فراش كبير واسع ويستمتع بهن في ممارسة جماعية؟ أثاره المشهد في ذهنه فتسللت يسراه تداعب عضوه. في نفس اللحظة انتبهت إليه صلوحة. جمد مكانه كمن ألقي عليه القبض متلبسا. فضحكت صلوحة عاليا ثم قالت: ما رأيكم لو نلعب لعبة الاعترافات؟ وجلسوا أرضا مكونين حلقة. دارت القارورة وتوقفت فوهتها باتجاه الراقي. نظرن إليه، وبدا لهن شبه مخمور. عالجته كل واحدة بسؤال:

صلوحة: لماذا تتنكر في هيئة شيخ؟

خديجة: هل سبق وضاجعت إحدى زائراتك؟

نوال: بماذا تحلم يا بن بلقاسم؟

جمع شفاهه اللزجة وتلمظ، ضرط ضرطة بلا خجل ثم جرع جرعة أخيرة من القارورة ورماها ناحية الحائط المقابل. أسند ظهره إلى المخدة خلفه وحكى ما لم يسمح لنفسه بقوله حتى لصورته في المرآة. الأسرار لا يجب أن تُحكى مهما كان حجم الصفاء والضعف.

أنا إسمي ماهر، درست القانون في الجامعة. لم أوفق في إيجاد عمل بسبب قضية مناشير مناوئة للنظام، لكنهم سجنوني بتهمة التحرش بفتاة كلفتني ستة أشهر. يا لها من كلبة عاهرة، كانت زميلة لي في الكلية واستعملوها بسهولة لهذا الغرض. كلهم رفضوني، قالوا أنا كلب متحرش يجب أن أتعفن في السجن. جعت كثيرا وأكلت الخبز من حاويات الفضلات. رأتني يوما العجوز صاحبة هذا القبو فأشفقت علي. نعم، أشفقت علي عجوز فآوتني. ورغم تدخلاتها لم تنجح في توظيفي أيضا. فقدت الأمل واعتزلت الخروج. أصابني اكتئاب كاد يبتلعني. نعم هذا الكلب كاد يموت مرضا. بعد أسبوع من العزلة جاءت العجوز وفتحت القبو بالمفتاح البديل الذي تخبئه عندها. شاهدتني مغمى علي ويا للعجب فمي كآلة تسجيل لم يتوقف عن ترديد البسملة. بسم الله بسم الله بسم الله... سكبت العجوز علي وجهي ماءا وأيقظتني. أجلستني ثم أطعمتني وهي تقول: يا بني فيك شيء من أولياء الله، لا تستخف به. نمت بعد أن جرعتني دواء مسكنا وحلما جميلا يدغدغني جعلني أستيقظ نشيطا. بمعجزة اقترضت مبلغا من المال وذهبت إلى سوق "سيدي بو منديل" واشتريت لوازمي وها أنا ذا أمامكم الراقي بن بلقاسم مدمر عقد السحر وفاقئ أعين الحساد.

عاودت القارورة دورانها وفي كل مرة تتوقف أمام أحدهم. دارت دورة كاملة كدورة القمر طوال شهر. قيلت حكايا ووقائع لم تخرج من الدواخل سوى تلك اللحظة. في زوايا مختلفة من

القبو ثبتت مسبقا صلوحة ثلاثة آلات تصوير وعلقت جهاز التقاط الصوت إلى السقف حيث تدلى قريبا من رؤوسهم.

تمطت خديجة واستقلت مكانها ونامت، أما صلوحة فتوسدت رجل بن بلقاسم وغرقت في تأمل السقف الذي غزته الرطوبة. بقيت نوال جالسة في مكانها، نظرت إلى صديقاتها ثم إلى بن بلقاسم وسألته: لم تجبني عن سؤالي يا بن بلقاسم! تنحنح الراقي يحاول تذكر السؤال لكنه فشل فضحك ضحكات بلهاء. فهمت نوال فذكرته بسؤالها عن طموحه ومستقبله. سكت برهة ثم ضحك ثانية وقال: طموحي أن أركب الرياح وأغزو العالم!

عزف الدفوف لمن فاته سحر الأنوف

عندما كلمته نوال عبر هاتفها الشخصي، وليس عبر قروب مسنجر الذي يجمعهم الأربعة في المساحة الخاصة التي يمارسون فيها حريتهم وجنونهم وتطلعاتهم وأسرارهم، وطلبت منه أن تزوره اليوم لوحدها لأمر هام لن يستغرق من وقته سوى دقائق معدودات، وافق على الفور. ولكي لا يقلق وتأخذه الظنون بعيدا، أسرت له نوال في المكالمة نفسها إن الموضوع كله يتلخص في إنها تريد أن تهديه هدية خاصة، لا تريد أن تطلع عليها خديجة ولا صلوحة.

بدأ بن بلقاسم بتنظيف المكان وجعله لائقا بزيارة نوال الصباحية هذه. لا بل انه جهز من القهوة التركية بالهيل ما يكفي لشخصين، في الجزوة النحاسية التي تفضلها، وأخفى حوارق البخور ومواعين صب الرصاص الذائب دحرا للعيون الحاسدة، وعظام الهدهد المتعفنة بعد تجريدها من اللحم وتجفيفها بالملح الخشن، والعوازل الطبية المطاطية التي يستعملها بين الزبونة والأخرى لإدخال أصابعه في ثقوبهن إن تطلب الأمر سحرا لتثبيت الحبالة وزرع الجنين، والخرق الخضراء التي يعصب بها رؤوس الفتيات المصدعات دوما والنساء المولولات بكل الأسباب وبدونها.

وضع عباءته الصوفية المصنوعة يدويا من وبر الأغنام والتي جيء له بها من العراق، على كتفيه وجلس على كرسيه الوثير

الذي يحلو له تسميته بالعرش، وسُبحته ذات المائة حبة بين أصابعه تطقطق بحجراتها اللامعة.

الوقت يمضي بطيئا، طاحنا، مدمرا للخيال ومثبطا للعزائم ومسيئا للظنون. لكنها وصلت أخيرا، تسبقها رائحة عطرها إلى المكان.

افتح الهدية.. لا لن أفتحها.. افتحها الآن.. سأفتحها بعدين.. لكنها ألحت في طلبها أن يرى هديتها إليه قبل أن تغادر. ما هذا؟ كتاب؟ شيء جميل فعلا. هل هو كتاب في السحر والشيطنة وعلوم الأفلاك؟ قالت له متبرمة انه ليس شمس المعارف الكبرى أو الكبريت الأحمر للطوخي بكل تأكيد، لكنه مع ذلك فهو كتاب يتحدث عن السحر فعلا. جذبه التعليق وأثار فضوله، فأخذ يقلب صفحات الكتاب لا على التعيين، وينتقل ما بين الغلافين بنظرات تائهة.

قالت نوال: يا سيدي هذا كان رجلا أجنبيا أتى من بلاده كسائح ذات يوم وعاش بيننا طويلا وأحب فتاة من منطقتنا كان اسمها عواطف أو شيء من هذا القبيل، وهام بها حبا وعشقها عشقا ولا في ألف ليلة وليلة أو في طوق الحمامة ومصارع العشاق. لكن أهل الفتاة رفضوه عندما تقدم لخطبتها وذلك لاختلاف اللون والدين والعرق والثقافة، فبقي يعيش بيننا لأجلها سنتين أو أكثر، ثم لما هي قررت الارتباط برجل آخر وتزوجته وسافرت معه الى مدينة بعيدة في الشمال، جن جنون صاحبنا وفقد عقله وصار ينام في الشوارع ويعيش في الميناء مع صيادي السمك والمهربين وراكبي قوارب الموت، ويبدو انه توفي بعد ذلك بمدة إلا أن هناك من قال إنه مات في المطار وهو يغادر بشكل نهائي بعد أن قامت سفارة بلاده بتنظيم وكفالة أمر رجوعه الى وطنه.

ارتبك الراقي وأحس انه متعاطف مع ذلك العاشق الغريب المجنون. ولكن سألها ما العلاقة بين هذا الحديث وبين تشريفها له بزيارة نهارية ولوحدها وليس هذا من عاداتها فهي دائما هنا معه ولكن برفقة صلوحة وخديجة؟ فأجابته إن العلاقة هي في هذا الكتاب الذي بين يديك. هذا كتاب ألفه ذلك العاشق الغريب، وطبعه بعضهم على نفقته لكي يخلد ذكرى ذلك الرجل الذي هام بتلك الفتاة الجميلة المتعالية اللاأبالية التي ربما هي الأخرى تكون قد رحلت دون أن تدرك معنى ذلك العشق المجنون.

غادرت نوال على عجل، وقبل أن تفتح الباب للخروج قالت له بصوت ناعم يا مولانا نحن نعلم أنك تحبنا ثلاثتنا وتعاملنا بالعدل والميزان ولست بمقصر مع أي واحدة منا نحن النساء الثلاثة وقد صرنا نساءك برضانا وإرادتنا، ولكني أنا أعرف كذلك أنك تخصني بنظرة أكثر من صلوحة وخدوجة ألمحها بين وقت وآخر بحكم الصدفة والتوافق ليس إلا، وتلك النظرة منك تخص أنفي. أنت تحب أن ترى أنفي دائما وأنا أعرف ذلك وأحب ذلك وأحب أن يبقى الأمر كذلك. هذا الكتاب له علاقة بكل تلك الحكايات. اقرأه لوحدك وأنا متأكدة انه سيسليك.

وشرع الراقي بن بلقاسم يقرأ في كتاب "عزف الدفوف لمن فاته سحر الأنوف".

على قمة جبل في الجنوب التقيتها لأول مرة. كنا ضيفين في مناسبة، وقد جمعتنا مائدة العشاء في الهواء الطلق والشمس ما زالت لم تغب تماما. وبين ترحيب وترحيب لمحت ابتسامتها الراقية وعرفت إن اسمها نوال. غادرت المائدة قبل الجميع مصحوبة برفيقة لها. اختلست نظرة الى جمالها فكان جسدها الفارع لا يمكن إغفاله رغم الملابس التي تغطيه باحتشام مبالغ فيه. غادرت مخلفة عطر حضورها الساطع وحلاوة حديثها وهي

تشارك مضيفيها مجاملاتهم، إلا إن ما لفت روحي وبقي عالقا فيها رسوخ السحر في القدر المحتوم، كان أنفها.

لا.. أرجوكم المعذرة، فلا يمكن لي وصف أنفها الجميل مهما أوتيت من قدرة على الوصف. وحتى لو أتيح لي أن أستعمل الكاميرا، فلن تستطيع لقطة واحدة ولا حتى عدة لقطات أن تنجح في نقل جمال أنف نوال وتقديمه اليكم لكي تعجبوا به إلى ما فوق درجات الإعجاب.

تُعد نوال من الفتيات اللائي يتمتعن بملامح فريدة ومميزة، وغالبًا ما يتم التركيز على أنفها كجزء من جمالها الفريد. الأنف الذي تتمتع به عواطف يُعتبر جزءًا من طابعها الشخصي والمميز، وهو يساهم في إضفاء جاذبية خاصة على وجهها.

الأنوف المميزة مثل أنف نوال قد لا تتماشى مع المعايير التقليدية للجمال، لكنها بالتأكيد تعزز من شخصيتها وتجعلها تبرز بشكل أكبر. كثير من الناس يعتبرون الأنوف المميزة جزءًا من الجاذبية الطبيعية والشخصية الفريدة التي قد تكون أكثر تأثيرًا وجاذبية من ملامح الوجه التقليدية.

من وجهة نظر فنية وجمالية، يمكن القول إن نوال بنت المستكفي تمثل نوعًا من الجمال الذي يُقدَّر لفرادته وتعبيره عن الشخصية المتميزة.

قد يُنظر إلى أنف نوال بوصفه مميزًا وفريدًا، علاوة على أنه عنصر من عناصر جاذبيتها. في عالم الجمال والشهرة، الجاذبية ليست دائمًا مرتبطة بالملامح التقليدية أو المثالية. ورغم أن نوال لا تعمل في مجال الأزياء أو التمثيل أو الرياضة أو الجمال الأنثوي بعامة، إلا أن الأنوف المميزة مثل أنفها قد تسهم في منح الشخص وضعية فريدة وجاذبية خاصة.

بالنسبة للجاذبية الجنسية، فهذا يعتمد بشكل كبير على التفضيلات الشخصية والثقافية. بعض الناس يجدون الجمال في التميز والاختلاف، ويرون في الأنوف غير التقليدية عنصرًا من عناصر الجاذبية الجنسية. نوال تتمتع بمظهر يعتبره البعض مثيرًا وجذابًا ليس فقط بسبب أنفها، بل أيضًا بفضل تكامل ملامح وجهها مع شخصيتها المميزة وجسدها المتناسق وابتسامتها التي تضفي عليها هالة من الغموض والجاذبية. إن أنف نوال يمكن أن يكون جزءًا من جاذبيتها الجنسية بالنسبة للبعض، حيث يُعتبر مظهرها الفريد عنصرًا من عناصر الجمال والسحر الأنثوي.

وإلى اليوم، ورغم مرور السنوات الطويلة والحروب الدامية والحوادث الجسام، لم أجد بجمال أنف نوال ما يضاهيه. فأن تنظر إليه من أمام ليس كأن تنظر إليه من أحد الجانبين. وهو في كل الأحوال ليس أنفا جميلا مميزا فحسب، بل هو كذلك وأكثر، بسبب ارتباطه بباقي أعضاء جسمها، فلا يمكن وأنت تؤخذ بالأنف العظيم هذا إلا أن تنتبه إلى القدمين تمشيان بذلك الإيقاع الهارموني، وإلى المؤخرة المستديرة المتوازنة بنسبة تتناسب وباقي الجسد، وأخيرا وليس آخرا، ستنتبه إلى أسنانها الأندلسية البارزة التي عندما تخرج الكلمات من فمها الآسر وتتظافر خصال الفم والأنف واللسان والأسنان، فأنت ستتساءل حتما يا ترى كيف تكون في هذه الحالة القبلات!

آه منك أيتها البلاد البعيدة الغريبة التي فتنتني من النظرة الأولى، كيف تلدين مثل نوال وفيك مثل تلك الشمس والرمال والبحار والجبال والجمال كله في حزمة واحدة؟

بيتزا وفتيات

ليس هناك أبشع من أن تكون الضحية امرأة والجلاد خالها. لم تدري أية صدفة جعلته يمر من ذلك الشارع. فمنذ وصولها إلى العاصمة وهي هائمة على وجهها، ولا تعرف لمن تلجأ أو إلى أين تذهب، إذ هي تدرك جيدا أن القريب والبعيد سمعوا بالفضيحة، وان الجميع قد تبرأ منها بسبب ذلك.

وصلت إلى محطة سيارات الأجرة تحمل حقيبة ظهر فيها بعض الثياب. تأملت الطريق المحاذي فإذا هو نهر من السيارات المجنونة لا يتوقف إلا مع وميض الإشارة الحمراء عند نقطة العبور. جلست بجانب مدخل المحطة تفكر أين ستذهب. المساء يزحف على النهار الذي ولى، وقريبا سيحل الظلام وتقل الحركة. كثيرا ما سمعت عن جرائم ليلية أبطالها خفافيش تخشى النهار. سرت في بدنها رعدة خفيفة. لم تجد سوى حقيبتها تحضنها وتتمترس بها فلعلها أن تقيها بعض شر هذه العاصمة المجنونة. فتحت حافظة نقودها وتأملت المبلغ الزهيد المستقر فيها، وبعد تفكير قصير، قصدت الكشك القريب واشترت كعكة وقارورة ماء صغيرة. وقطعت الطريق متجاوزة سيل السيارات إلى الجهة المقابلة.

ودلفت إلى المقبرة القريبة.

هدير السيارات وأبواقها يملأ الفضاء ضجيجا، لا يتسرب الهدوء أبدا إلى أماكن كهذه. استندت على شاهدة قبر عالية ووقفت تتأمل المكان حولها.

جلست والظلام يلفها واستندت بظهرها الى شاهدة القبر الطويلة. لم تتبين جيدا اسم المدفون، لكنها خمنت ماذا سيكون على الشاهدة بخلاف اسم الميت وتاريخ الوفاة، "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي. صدق الله العظيم". هل المدفون في القبر رجل أم امرأة؟ بل يمكن أن يكون طفلا أو طفلة!

كان الليل يلف هذا الجزء من المدينة بالظلام، وبين مبانيها القديمة تتأرجح أصوات الرياح بشكل مخيف. في أحد الزوايا الضيقة وقفت الفتاة الشابة، تحاول اختراق الظلام بعينيها المرتعشتين، وهي تتأمل المقبرة المهجورة أمامها.

بدأت بالتفكير في فكرة جنونية، أن تغفو جنبا إلى جنب مع أحد القبور في المقبرة. لم تكن تعرف سبب ذلك الشعور الغريب الذي دفعها لاتخاذ هذا القرار، لكن الشجاعة والفضول دفعتاها نحو هذا الطريق المظلم.

بينما هي تتوجه صوب المقبرة، استدر الظلام هدوءا ثقيلا حولها. كانت ليلة متأخرة، وكان الهواء بارداً مع هدوء غريب. كانت ستسافر لأيام، فقد تاقت للعودة إلى قريتها المتواضعة للراحة، لكن القدر قرر لهذه الليلة أن يتآمر ضدها. كانت جميع الأماكن أمامها محظورة، ولم يكن لها مكان تريح فيه رأسها المتعب.

مع تحول الدقائق إلى ساعات، أثقل تعب النعاس عينيها. وفي لحظة كادت أن تغلق فيها جفونها، لفت انتباهها لمعة وحركة. صعقت، وقامت بالجلوس مباشرة، حيث اندفع قلبها في صدرها يخفق. حدقت عبر الظلام بصعوبة، حاولت أن تميز الشكل الذي تحرك في المسافة.

ولدهشتها وذعرها المتزايد، رأت شبحا، مضاءا بنور القمر الخافت. كان شيئا مختلفا عما ألفته من قبل. كانت هناك صورة مظلمة مع عيون تضيء من خلال الليل. زاد خوفها حين أدركت أنه كان يطفو فوق أحد القبور. اجتاحها الذعر عندما أدركت أن هذا الكائن الخارق للطبيعة لن يكون إلا قوة من قوى الشر، تهمس أسرارًا في الهواء.

جمدت خائفةً، تنفسها احتبس تياره داخل حلقها. دون أن تعلم ما الذي يجري تماما، خمنت للحظة إن الشبح المتحرك ربما كان قد أحس بوجودها، لذا، فها هو قد حوّل نظرته اللامعة مباشرة نحوها. صدى صوت وحشي زمجر في عقلها، يحثها على الفرار. إن كان لابد لها أن تنتهك وتغتصب ويمثل بجسدها بلا رحمة، فيجب أن لا يتم كل ذلك في مقبرة فقيرة، وبين روائح الموتى وبقايا قطط أكلتها الكلاب السائبة. بقلبها الذي ينبض بسرعة، حشدت كل قوتها وركضت، دون أن تلتفت للوراء.

منهكة ومشوشة، انهارت على جدار متجهم، تتنفس بصعوبة. تسابقت أفكارها، وتساءلت: هل كان ما شهدته حقيقة أم خيالا؟ كانت تعتقد دائمًا في حكايات الأرواح والأشباح، لكن أن ترى الشيء ليس كأن تسمع به. تجربتها الشخصية هذه على قصرها ربما تكون قد حطمت مجرى حياتها.

هل تبالغ؟ لطالما اتهمتها صديقتها بذلك. شعرت وكأن دهورا قد مرت عليها، وأن وجهها قد شاخ، وتغضن جلدها واحدودب ظهرها. تلقت وحيدة مع أول شارع رئيسي مضاء بمصابيح قوية تدلف اليه دموعا حارقة وهي تنهمر على وجهها.

هي لم تره، لكنها لن تنساه.

اكتشفت أنها بعيدة عن بوابة المقبرة. تحاملت على نفسها وجرت ساقها المصابة وانحدرت مع الطريق تروم مغادرة المكان. شعرت بالدوار ورغبة في القيء ووهن أثقل جسدها. خطواتها البطيئة لم تساعدها على قطع الطريق. كلما تقدمت خطوة إلا ومرت سيارة مجنونة تكاد تصدمها أو أخرى يباغتها بوقها القوي فتتحامل على نفسها وتعود أدراجها إلى الرصيف. أخيرا اشتعل الضوء الأحمر فتوقفت الحركة مع مرور الميترو فاغتنمت الفرصة وقطعت الطريق تعرج باتجاه الجادة الرئيسية.

اشتد بها الألم وتحول الى نبض في صدغيها وسائر مفاصل بدنها، وارتفعت حرارتها. غزت غمامة سوداء رأسها سرعان ما غشيت عينيها. تباطأ تنفسها وملأ وجيب القلب أذنيها، فجأة هوت في حفرة عميقة استفاقت منها لتجد نفسها في قسم الطوارئ في المستشفى. المكان يعج بالأنين والأقدام الغادية والرائحة، وخشخشة السترات الواقية للإطار الطبي وشبه الطبي متناغم مع الأصوات فاندمج فيها وتحول الى حفيف مخيف يكتم الأنفاس. تحاملت على نفسها وانسحبت من السرير بعد أن فصلت إبرة المصل المغذي من شريانها وتجولت بين الغرف. الحماية في أقصى معدلاتها والكل متوجس من الكل. لا تظهر سوى الأعين التي يسكنها الخوف والأطراف المكسوة بالبلاستيك، حركاتها متوترة سريعة تتجنب الاحتكاك بأي محمل أو لمس أي شيء. حملتها خطاها حتى وصلت قسم الكوفيد. على جانبي الباب تكدس الناس، كل ينتظر دوره لزيارة قريب أو حبيب خذلته صحته وألقته في براثن الفايروس الفتاك. وبين الفينة والأخرى تسمع صيحات مروعة يعقبها ردح من الصمت ثم تطل من آخر الرواق جثة مغلفة في كيس بلاستيكي أسود مختوم، يحملها المعينون الى ثلاجة الموتى. جلست هناك تفكر في وجهتها بينما لم ينقطع سيل الوافدين

على قسم الكوفيد ممن تعطلت أجهزتهم التنفسية جراء الكوفيد التاسع عشر. عادت الى سريرها وجمعت أغراضها، وغادرت نحو المجهول. قادتها قدماها بعيدا لتجد نفسها في النهاية في نهج يغص بباعة الأواني المنزلية ووسائل التنظيف ومناقل شي اللحوم المعمولة من المعدن الرخيص. المكان لا يعج بالحركة والصخب الآن، لكنه سيكون كذلك بمجرد انبلاج خيوط الفجر الأولى. السلع المعروضة سطت على نصف الإسفلت. هل تركها الباعة هكذا منذ الأمس مثلا؟ هل تركوا على الأرصفة أيضا سحناتهم الريفية والحناجر التي لا تكل من النداء على جودة بضائعهم؟ ضعفها وجوعها أجبراها على التوقف وأخذ قسط من الراحة في مدخل إحدى العمارات السكنية القديمة. انزوت خلف الباب. فردت ساقيها وكشفت عن ساقها الملفوفة في الضمادات إلى حدود ركبتها، ربتت عليها كأنها تقيس مدى القوة التي بقيت فيها وتخمن المسافات التي قد تقطعها. رشفت آخر ما تبقى في قارورة الماء ثم انبرت تتفحص المكان. مرت إلى بئر السلم. بناء عتيق يعود الى عهد الاستعمار، أرضيته وحيطانه مكسوة بقطع بلاط مطعمة بالأزهار والألوان. هناك وجدت أريكة مهملة وبعض الأغراض الأخرى التي لا يحتاج إليها سكان العمارة. سحبت حقيبتها وأبعدت الزوائد عنها، شكلت بالطاولات والكراسي جدارا من جهة المدخل. وارتمت بثقلها على الأريكة. استقرت على ظهرها فقابلها السلم ملتويا الى أعلى كأفعى في السقف المقشر بسبب الرطوبة والأمطار. سحبها خدر النوم إلى أعماقه السوداء اللذيذة. أفاقت على اصطفاق باب المدخل الحديدي وجلبة ضوضاء. تعالت أصوات رجالية في حوار أدهشها. قامت حذرة حتى لا تصدر صوتا أو تصطدم بأحد الأشياء فينكشف مكانها، واسترقت النظر ناحية الباب تستطلع ما يجري. رجلان يترنحان أمام الباب، مرة يضحكان ومرة يصرخان ومرة يدخلان في حوار كالعراك. استمعت لما يقولان:

- لم أعرف يوما ما أرغب فيه، أن أكون كاتبا أم مسؤولا، أن أهاجر أم أبقى؟ لهذا لا أعرف حقا كيف أرى الأشياء.

- هذا لأنك تكثر من الذهاب الى المقبرة ليلا وتعاشر الأرواح الشريرة هناك. يا رجل أنا أحيانا أخاف منك صدقني بسبب ارتيادك للمقبرة كل ليلة حتى الفجر. متى ستكف عن هذه العادة؟

- لن أكف حتى أدفن فيها بشكل رسمي، وتأتي أنت لزيارتي كل نهار جمعة، وفي الأعياد.

أحست بنبرة الأسى في صوته والتي جعلت رفيقه يربت على كتفه ثم يقوده ناحية السلم. هي لم تره لكنها لن تنساه. تراجعت إلى الخلف واختبأت حتى لا يتفطنا إلى وجودها. سرعان ما سمعت اصطفاق أحد الأبواب خمنت أنه باب شقة الرجلين في الدور الأول من العمارة. جلست على الأريكة حين انتبهت لتيار من الألم يقرصها. تحسست ساقها تعاين كمية الألم التي تسري فيها، فتذكرت أنها لم تشرب دواءها وأن معدتها خاوية ترسل إشارات الجوع التي تحولت إلى ألم آخر. نظرت إلى ساعتها. يشير الوقت إلى قرب طلوع الصبح، والحركة في الخارج بدأت تعلن عن نفسها وأهل العمارة ستدب فيهم الحياة، فأين ستذهب؟ عاودها الألم فاعتصرت بطنها لعله يخف، لكن وخز الجوع كان أقوى من أي وخز آخر. طفقت تدور حول نفسها في المكان الضيق حتى أصابها الدوار. لم تنتبه إلى تلك الخطوات المستترة في الظلال التي عدلت مسارها وانعرجت نحوها بهدوء. انتفضت من شدة الرعب ويد ثقيلة تنزل بقوة على عنقها من الخلف ثم تمسكها من ثيابها وتسحبها إلى الأعلى. وقهقهة كريهة أعقبها تعليق "أخيرا وجدت طريدة". كلامه جعلها تتخشب في مكانها وتجحظ عيناها من الشدة والروع. رغم ذلك لم تخطئ الرنة، الصوت مألوف لدى أذنيها.

لمعت ذاكرتها وصورة خالها تستقر في ذهنها. صاحت من المفاجأة: خالي!؟ وجحظت عيناها تلتهمان وجهه. بعد برهة أفلتت منه وركضت ناحية مدخل العمارة. عند الباب بالضبط أدركها. أمسكها من رسغها بيد وباليد الأخرى كتم على أنفاسها حتى لا تصدر صوتا، وجرّها إلى ذلك الركن خلف الدرج. ثبتها إلى الحائط بركبته بينما يمناه ما تزال مثبتة على فمها، وبيسراه أخرج من جيب سرواله سكينا بنصل قصير يلمع ووضعه على نحرها وقال متوعدا: سأرفع يدي عن فمك لكن إياك أن تقومي بأية حركة أو يرتفع صوتك، سأذبحك إن فعلت.

أومأت برأسها موافقة فانحدرت يده عن فمها رويدا رويدا ثم دفعها للجلوس على الأريكة، وقال متوعدا: ستلملمين حقيبتك و تغادرين معي كأنك صاحبتي. لن تقومي بأية حركة تثير الشبهات وإلا أقسم أنني سأرمي كبدك للقطط. هل فهمت؟ حركت رأسها إشارة على الموافقة.. حملت حقيبتها وتبعته تجر ساقها المعطوبة.

هالة والجريمة

غمزت خديجة لنوال وصلوحة، فبادلنها الغمزات الخفية المشفوعة بالابتسامات الماكرة. الليلة سيلعبن لعبة مسرحية بطلها بن بلقاسم، رغم اعتراض نوال، التي قبلت ذلك في النهاية مرغمة.

هذا المساء قدمن باكرا على غير العادة، استقبلهن بن بلقاسم في مقره المعتم، حافيا كالعادة ومتدثرا بعباءته المشرقية. لم يقدر على سؤالهن عن السبب وراء تبكيرهن بالمجيء. هل ثمة من أمر يحكنه له يا ترى؟ لم يهتم عقله بالسؤال المطروح، بل أمسك بالأكياس الكثيرة التي جئن بها كمستلزمات للسهرة الماجنة، وطفق يفرغها في صحون، ويزين بها الطاولة.

تحللن بسرعة من أحذيتهن وثقل ملابسهن، وطوحن بحقائبهن بعيدا، وكالعادة، أغلقن هواتفهن الجوالة. جلس الجميع أرضا متحلقين حول مفرش المائدة المستديرة، وانهمكوا في الأكل والشرب والضحك والغناء والنميمة. في غفلة من الجميع وضعت خديجة حبة في كأس وسكبت عليها شرابا، وحين ذابت دفعت بالكأس لبن بلقاسم وساعدته على شربه في نفس واحد. ثم تجرعت هي جرعات من كأسها وانهمكت في الأكل بنهم، وكذلك فعلت صلوحة. أما نوال فأكلت ببطء ولم تقترب من الشراب. تأملت الجماعة وقد بدأ مفعول الشراب يظهر عليهم من خلال قهقهات مدوية وحركات متخبطة. تكفلت نوال برفع أطباق الطعام بعد أن شبعوا، وعوضتها بأخرى مرصفة بالغلال والحلوى. ولم تعد مكانها إلى الطاولة بل جلست على السرير المتهالك.

استرخى بن بلقاسم في مكانه وقد زاغت نظراته واحمر وجهه وتحركت يداه كيفما اتفق. قال: تأخرتن في القدوم هذا الموسم! لو لم تأتين اليوم لما وجدتنني!

تطاولت خديجة برقبتها نحوه معاتبة: أيها المجرم أتخبئ عن حبيباتك أسرارك؟

تأوه بن بلقاسم و رد بتلقائية: كم من الأسرار أدفنها في قلبي!

الحبة التي شربها بن بلقاسم دون أن يفطن جعلته يتكلم دون سيطرة، كان تلك الساعة كتابا مفتوحا أمام الجميع.

دائما يا خديجة تسبقين صلوحة في السؤال، وأنت يا نوال متى تصبحين جريئة؟

أنتن لا تعرفن ما فعلت بهالة، لم أحك لكن كل شيء، تذكرن في الموسم الفارط حين زرتنني وجدتن عندي أحد الزبائن أرقيه، لم يكن زبونا بل هو خال هالة. هالة هذه هربت من أهلها بعد أن رفضت الزواج من صديق خالها، هو مروج مخدرات ومهرب، لكنه في النهاية غني فلم ترفضه.

ما علاقتك بها وماذا فعلت بها؟ سألته صلوحة مستنفرة.

ههههه لا تزعجيني بأسئلتك، اصمتي أنت. جاءني خالها يستشيرني عله يظفر بمساعدة الجن حتى يجدها. روى لي كل التفاصيل. خمنت أنها لن تأتي مباشرة إلى العاصمة بل ستختفي يوما وتنتقل إلى مدينة مجاورة ومن هناك تستقل سيارة أجرة وتهرب. من حسن الحظ أنه يملك صورتها، مكنني منها لذلك تعرفت عليها مباشرة في المحطة. راقبتها فرأيتها تنسحب إلى المقبرة وهناك ألفت مسرحية على عجل فقط من أجل إخافتها ومحاصرتها. المسكينة ماتت رعبا. من شدة ركضها سقطت في قبر قديم وأصيبت ساقها، لكنها استطاعت التحرك وذهبت الى المستشفى ثم تحصنت بعمارة. وحين

عرفت أنها لن تغادر حتى تتحسن حالها اتصلت بخالها. جاء وأمسك بها وأعادها الى البيت. أظن أنها الآن زوجة سعيدة لمروج مخدرات ومهرب. إنه غني لم ترفضه. وأطلق قهقهة عالية جعلت نوال ترتعب وقد داهمها خوف طارئ.

وماذا ربحت من كل هذا غير أنك جعلت امرأة تعيش حياة تعيسة؟

هل أنت ذكية جدا يا خدوجة؟ إنها عشرة آلاف دينار.. دينار في إثر دينار..

وبشيء من الحكمة المفتعلة أضاف قائلا:

المال مفتاح بلوغ الجنة يا فتيات. أليس كذلك؟

آه، يا لك من مجرم متخف، أيها القاتل المتسلسل! قالتها نوال مبتسمة وهي تحاول أن تخفي غضبا مكتوما لكي لا يظهر على ملامحها.

ضحكت خديجة وطلبت من نوال الاسترخاء وعدم الخوف، بن بلقاسم سيقوم بتسليتهن كثيرا الليلة.

سألته: وما السر التالي المخبوء في ظلامك يا مولانا؟

أه منك يا خدوج! أنت في العادة ذكية، لكنك بالنسبة لي حمقاء. بسرعة جئت إلي، لم تنتبهي إلى المرات التي أجعلك فيها تشربين كحولا فيها حبوب مذابة، كنت وليمة شهية لجسدي الجائع، حتى أنك أهديتني بيتك الذي تملكينه. قهقه بن بلقاسم وأكمل: لا لا لقد وقعت على عقد البيع دون أن تأخذي دينارا واحدا. ضحك بن بلقاسم ضحكات بلهاء، وضحكت خديجة وصلوحة. بينما امتقعت ملامح نوال وارتعشت يدها تبحث لا إراديا عن هاتفها المخبوء في حقيبتها البعيدة عن متناولها. فكرت أن تخون العهد والميثاق الذي يجمعهم

بخصوص سرية وخصوصية حياتهم في هذا الثقب المعتم من الوجود الإنساني. لقد شربوا سريعا وكثيرا، مع أن خديجة وصلوحة بمجرد شرب كأسين من النبيذ الوردي يضيع منهما العقل.

- وأنا، ماذا فعلت بي أيها المشاكس؟ تساءلت صلوحة وهي تضربه ضربات خفيفة على كتفيه.

- أنت مضحكة يا صلوحة. تفقدين عقلك بجرعة واحدة من الشراب، ما الذي يدفعك لذلك. أنت امرأة بطعم الكرز، أتلذذ بكل لحظة أمضيتها معك على هذا السرير الذي لا يليق بمقامك لكنه شاهد على فرحك. أنت تذكرين المرة التي أتيت فيها لوحدك خلسة عن خدوجة ونوال، في ذلك اللقاء ولأنك ثملت من المتعة فقد أهديتني مطعما بحي النصر، أنظري كم أنا عظيم ولم أطالب إلى الآن بالانتقال إلى أملاكي والإشراف على إدارتها.

نكزت خديجة صلوحه بكتفها تلومها: أيتها الخنزيرة، تزورين شيخنا سرا دون علمنا! عقابك واجب علينا!

ضحك الثلاثة بطريقة خليعة وصوت صاخب، بينما تحفزت نوال للاستماع الى فقرة الحديث القادمة التي تخصها.

عدل بن بلقاسم نومه على ظهره إلى نصف جلسة ونظر باتجاهها وقال: أما أنت يا نوال فإنك حبيبة القلب والروح. لا أعرف ما تهبينني، لكنك ستكونين خير عروس لي، حتى أنني أجهز لك تعويذة قوية كي لا تملي مني أو تهربي، أريدك عروسا مطيعة. ورمى نحوها بقبلات كثيرة، صلوحة وخدوجة تعترضان على زواجي بك تريدانك عشيقة لا تغادر فراشي. صحيح، أنتن جميعا نسائي وحريمي وشريكات فراشي، لكني قررت أن أتزوج نوال رسميا، وأبقي على خدوجة وصلوحة

زوجتين إضافيتين بورق عرفي، أو بزواج متعة، أو مسيار. كله ماشي، طالما أن القانون اللعين يمنع تعدد الزوجات. تبقين حبيبات قلبي كلكن، لكنني اخترتك أنت يا نوال لكي تكوني سيدتنا جميعا، ونحن لك الخدم والعبيد.

ثم عب من القارورة وقال:

حين أنتقل إلى بيت خديجة وأتسلم مطعم صلوحة وأتزوج نوال، سأستعيد اسمي، ماهر غزيل، و ميل يا غزيل يا غزيل ميل... ههههههه.. فرد جسمه على الحشية وأسلم رأسه لوسادة ثم سرعان ما تصاعد شخيره.

نظرت نوال إلى ساعتها، إنها العاشرة ليلا، الطرقات تكون قد خفت فيها الحركة وبإمكانها القيادة. وضعت هاتفها بحرص في حقيبتها، قبضت على معصمي خدوجة وصلوحة وجذبتهما لمغادرة المكان. اعترضتا قليلا ثم استسلمتا لها. وغادرن ثلاثتهن...

قادت نوال بسرعة حتى تخرج من ذلك الحي الذي يسكنه بن بلقاسم، وحين قدرت أنها ابتعدت مسافة لا بأس بها اتجهت ناحية البحر. أوقفت السيارة وتركت النور يطرد وحشة الشاطئ المظلم، لكن تلاطم النسمات القوية بموج البحر أعاد إليها الرعب الذي تملكها في بيت بن بلقاسم وضاعفه. فتحت باب السيارة الخلفي وجذبت خديجة وصلوحة إلى الخارج. ورغم اعتراضهما قادتهما إلى البحر، دفعتهما بقوة في الماء البارد ثم سحبتهما إلى الرمل. البرد والبلل تكفلا بإفاقتهما. تمطتا وهما ترتجفان وتساءلتا عما يحدث. كزت نوال أسنانها وصفعتهما بقوة. انسحبت إلى سيارتها وغادرت دون ذرة ندم واحدة. تركتهما خلفها كمشردين بلا مأوى. كانت تلك أخر مرة تراهما فيها. لعنت بن بلقاسم وخدوجة وصلوحة والوقت الذي أمضته معهم. ستغادر في أول طائرة، وتقطع مع الجميع

صداقتها. كلهم خونة. جمعت حقائبها بخفة كأنها تخاف أن تنبت أجنحة لصلوحة وخدوجة فتصلان بسرعة البرق. انطلقت دون أن تنظر وراءها، وقد هجمت عليها الأفكار والهواجس، تشتت تركيزها فأخطأت المحول المؤدي إلى طريق المطار، لم تنتبه إلا وهي تقود في مدخل الطريق السيارة جنوبا. كان هناك تجمع كبير للسيارات والناس، يبدو أنه وقع حادث مروري، تجاوزته بمسافة ثم توقفت. نضحت وجهها بالماء وجمدت مكانها لبعض الوقت تفكر. أخيرا تحركت السيارة وأمعنت في التوغل في الطريق السريع، لن تعود إلى العاصمة الآن لقد قر قرارها، ستعود إلى قريتها بأقصى الجنوب، ستختبئ هناك أياما وحين تتجاوز خيبتها ستعود إلى غربتها. شغلت أغاني جاك بريل، هامت معها وتحركت كوامنها، انسابت الدموع مدرارا من مآقيها وتتالت شهقاتها. انحنت نوال تبحث عن مناديل لتمسح دموعها وتنظف أنفها من المخاط. لم تطل يدها علبة المناديل التي وقعت تحت الكرسي الذي يجانبها، فانحنت أكثر ولم تنتبه للمقود ولم تخفف سرعتها. انحرفت السيارة بشدة وكسرت الحاجز الحديدي ثم دارت في الهواء دورتين واستقرت بعيدا عن الطريق. كان آخر ما رأته نوال هاتفها يومض معلنا عن وصول رسالة، ثم سقطت في ظلام دامس، بينما بقيت تلك الرسالة التي تحمل خبر فوز الفيلم الذي يحمل اسمها، تنتظر أن يطلع عليها أحد، لكن دون جدوى.

فيديو في تطبيق التيك توك تسبب في حرمان مخرجة مشهورة من جائزة قد فازت بها قبل أشهر، ويزج بها في السجن مع صديقتها. عنوان تصدر معظم الصحف جعل بن بلقاسم يقفز فرحا تحت أحد جسور باريس القاسية. ضرب بقوة الإسمنت البارد. وهو يشكر سارق هاتف نوال على فعلته بنشر فيديو جلستهم الأخيرة. غزاه غضب مفاجئ وهو يرى

شابا يوجه إليه هاتفه ويقترب منه. لقد عثرت عليه أخيرا، هذا هو بن بلقاسم، انتظروا إثارة لم تحدث من قبل في بث التيك توك، اليوم نعرف بالضبط ماذا جرى لنوال ماذا فعلت بها صديقاتها. أطلق بن بلقاسم رجليه وسابق الريح. حين تأكد من أن الشاب فقد أثره، توقف، واستل هاتفه وفتح محرك البحث غوغل. من جديد تطفو قضية وفاة نوال على الساحة وتتحول إلى قضية رأي عام بسبب زوجها السابق. كان الكل يطلبه هو بعد إيقاف صلوحة وخديجة. وبينما هو مشغول بالهاتف، توقف شاب قريبا منه وألصق صورة كبيرة على العمود الذي يقابله. حين غادر الشاب إلى مكان آخر، اقترب ليطلع على فحوى الصورة الملصقة، لقد كانت صورته هو بن بلقاسم وتحتها جملة مطلوب للعدالة، جائزة مالية لمن يبلغ عنه.

ما هذا؟ هل هو يحلم؟ هل هي لقطة من فيلم ويسترن لسيرجيو ليوني؟ جمد مكانه، شعر كأنه فأر محشور في قفص كبير ، يجب أن يهرب إلى مكان آمن. سيعود إلى مكانه تحت الجسر ليلملم أغراضه ويغادر نحو الغابة، وهناك سيتدبر أمره. سيتسلل عبر نفق المانش ليبدأ حياة جديدة في أرض الإنكليز أسوة بآلاف المهاجرين المنتظرين الفرصة عبر نفق كاليه. وجد بن بلقاسم مجموعة من المهاجرين المشردين يتقاسمون أشياءه. حاول استرجاعها فرفضوا إعادتها له، كان يظن أنه سيجبرهم بفعل ذلك ضربا لكنهم تجمعوا وأوجعوه لكما ورفسا، ثم عاجله أحدهم بمطوى غاصت في أحشائه، وسرعان ما تفرقوا عنه وتركوه يسبح في بركة من دمائه.

فهرست الرواية